

د. رزي الامير

البلد البعيد الذي تحب

دار العودة - بيروت

البلد البعيد الذي تحب

ديزي الأمير

البَلَدُ البعيدُ الذي تُحِبّ

قصص

دار العودة ـ بيروت

الطبعة الاولى ١٩٦٩
الطبعة الثانية ١/٤/١٩٧٩

دار العودة ـ بيروت
كورنيش المزرعة ـ بناية
الريفيرا سنتر ـ تلفون
٣١٠٨٤٠ ـ ٣١٨١٦٥

المرحلة الرابعة

تكومت الثياب على الفراش ، وعادت هي الى الخزانة تفرغ بقية ما فيها وتضعه هنا وهناك وعلى كل ما تجده صالحاً لذلك في الغرفة .

اليوم هو الموعد الاسبوعي لعملية جرد محتويات الخزانة وتنظيفها واعادة تنظيم حوائجها ورمي ما لم تعد لها به حاجة . وبتكوم الاشياء على الفراش والمناضد والكراسي ، انتهت المرحلة الأولى ، وبدأت مرحلة تنظيف الخزانة ومسحها من الغبار ووضع الاغطية المطرزة على رفوفها . وجاءت المرحلة الثالثة بعملية اعادة الثياب الى اماكنها . رفعت فستاناً وعلقته ، وثانياً ، وامسكت بثالث ومن تحته برز كيس الصور .. كانت قد اعتادت في كل اسبوع ان تمضي نصف الوقت في تنظيم الخزانـــة ، والنصف الثاني في تأمل الصور .

رفعت الكيس ثم ارجعته .. عليهـــا ان تتخلص من اكوام الثياب اولاً ثم تعود الى الصور تعطيها من الوقت كل الوقت .. وعلى الفر اش انزلقت من الكيس صورة ..

صورة ملونة التُقطت لها في ذاك البلد البعيد الذي تحب .. اليد الثانية لا تزال بعدُ مشغولة بتعليق الفساتين .

كانت جالسة في قارب تجديف والهواء يلاعب شعرها الطويل وعلى شفتيها ضحكة غمرت وجهها بالسعادة . وعيناها نصف مغمضتين اتقاء وهج الشمس .. علقت اليد الفستان .. ما كان يقال لها حتى بدت عائمة بالسعادة هكذا؟ لو تذكرت من كان معها في ذلك اليوم فربما اوصلها هذا الى تذكر نوعية الحديث الذي كانت تسمع . ولكن الصورة لها وحدها وليس معها احد . حدقت في الصورة .. هنا شيء قريب منها .. الى يسارها كف تمسك بسيكارة مشتعلة .. لم تستطع تمييز الكف .. انها كف انسان اشاع السعادة عليها بحديثه او بقربه منها . فمن هو ؟.

اطالت النظر الى الكف . لا يبدو منها ما يميزها عن بقية الايدي . والسيجارة ؟ انها متوهجة ودخانها يرتفع ويتطاير ويغطي قسماً من شعرها . وعادت الى الكف . السيكارة اشتعلت ونفق دخانها الآن ، فماذا جرى للاصابع التي تمسك بها ؟ واصابع من هي ؟.

رمت الصورة على السرير وعلقت فستاناً آخر . ما كانت ترتدي في الصورة إنه فستان اخضر بلون الاشجار التي تغطي السطح الخلفي للصورة . تتذكر الفستان تماماً . لقد اشترته حين رأته بالصدفة في واجهة احد المخازن، ولبسته في مناسبات

سارة كثيرة . فهو من الفساتين التي تجلب حسن الحظ . في كل مرة ارتدته صادفها حسن طالع ، حتى تفاءلت به وصارت تلبسه كلما رجت ان تلقى مصادفة حلوة . انه ليس بين اتينها ولم تره منذ مدة ، اتراه بين الثياب الفائضة والقديمة التي تملأ بها عدة حقائب ؟ وهرعت الى الغرفة العليا تنبش محتويات حقائبها . انه ليس هنا .. وتذكرت لقد اعطته لابنة الجيران في السنة الماضية . ولكنها لم تره عليها .. لعله لم يناسب جسمها او لعلها فرّطت هي الاخرى بتعويذة الفستان الاخضر ..

اكوام الثياب تنتظرها في غرفتها .. اعادت قسماً ، وفي استدارتها للامساك بقطعة اخرى تعلقها وقعت عينها على الصورة .. بجوارهـــا حقيبة يد بنية. وتذكرت كم كانت تحب تلك الحقيبة .. وكم حملتها حوائج وكم استوعبت . وتذكرت بالتفصيل يوم سفرها من ذالك البلد البعيد الذي تحب حين اكتشفت ان حقيبة اليد تحتاج الى اصلاح قفلها . وكيف انها لم تستطع اصلاحه لضيق الوقت ثم .. حين امتلأت حقيبة الثياب الكبيرة لم يبق مكان للحقيبة الصغيرة فاضطرت الى تركها للخادمة التي تنظف الغرف .. ولا تزال تتذكر تماماً منظر الحقيبة الصغيرة وحيدة في الغرفة يوم سفرها . لقد احست انها خذلتها حين تركتها وحدها ولكنها غبطتها على البقاء هناك .. وها هي الحقيبة تنتصب امامها الآن .

حملت الحقائب تضعها في مكانها على الرف .

ومن بين الثياب سحبت معطفاً غامق اللون تتأمله . في الصورة كان معطف يرتمي بزهو على كتفيها .. معطف ذو لون نضر بياقة من الفرو .. اكتشفت بعد فترة قصيرة ان الفرو من نوع يتلف بسرعة فنزعته وبدا بعده لون المعطف باهتاً، فرأت ان تغير لونه. وتتذكر يوم امسكت به تتأمله حين جاء به عامل المصبغة .. لم تميز فيه ابداً المعطف القديم . وعادت تتأمله .. ليس فيه من معالم القديم شيء .. إنه جديد ممسوخ .. واعادته على السرير. كيف تضيع الاشياء وتتغير دون ان نحس .. قذفت نفسها قرب المرآة .. دفعت الحوائج .. رمتها على الأرض .. ووقفت تتأمـــل شعرها القصير المستقر الثابت بين جدران الغرفة الأربعة .. لا دخان سيكارة يغازله ولا يطير قسم منه يعابث الهواء .. ولا يرتاح قسم آخر بكبرياء على ياقة من الفرو .

واسرعت تعيد الثياب الباقية بعصبية وخوف ، وعلى قعر الخزانة رتبت الاحذية . حدود الصورة تنتهي عند كاحلها .. لم يبد الحذاء. وحسناً فعل .

اغلقت الخزانة .. لقد زالت كوم الثياب والحوائج من على الفراش والمناضد وعادت الغرفة الى هدوئها وترتيبها .

استدارت متوجهة نحو الباب فطالعها وجهها ثانية في المرآة ؛ تبسمت فبدت ابتسامتها بلهاء غبية . ومسخت ضحكة فتعكرت المرآة .

جذبت الصورة تحدق فيها وتحدق، تفتش عن شيء بعد موجود .. عن شيء لم يتغير .. عن شيء تستطيع الامساك به .. تريد الامساك بأي شيء .. وفي الصورة كانت يدها تمسك بوردة حمراء .. وردة حمراء كبيرة تستقر مطمئنة في كف يدها اليمنى .. لن تفتش عنها او تبحث .

رمت الصورة وركضت من الغرفة . صفقت الباب عالياً وراءها وهي تنادي الخادمة « نظفي غرفتي ، اكنسيها .. اكنسي كل ما تجدين على الارض .. » .

العينان .. عيناها نصف مغمضتين ، عادت الى الغرفة تنظر في المرآة . وتغمض عينيها نصف اغماضة تريد ان تتقي وهج الشمس .. رأت يدها تنحني على الارض .. تلتقط الصورة . تقلبها . كان تاريخ يوم التقاطها مكتوباً على ظهرها .. التاريخ يعود الى ثلاث سنوات عبرت .

وتطلعت في المرآة تفتش عن الماضي ، وهناك في المرآة رأت كفها الاخرى تتعاون مع الاولى على تمزيق الصورة قطعاً صغيرة .. ثم اصغر .. فأصغر .. واصغر واصغر.. واصغر ..

انتهت من المرحلة الرابعة والاخيرة لعملية الجرد الاسبوعي للخزانة .

دُفْك

قيل لها « هل ذهبت تشكرين رئيس المؤسسة على تعيينك، وتخبرينه انك سعيدة بالعمل معه، وترجين ان تكوني عند حسن ظنه بك ؟ »

فأجابت : - كيف اتعهد بالسعادة ؟

- هذه واجبات الموظف الجديد نحو رئيسه .

- سأذهب لشكره واتعهد بالقيام بواجباتي .

واحبت عملها وارتاحت للموظفين الصغار مثلها، واحست لذلك بالسعادة لا للعمل مع رئيس المؤسسة، فهي لم تره بعد مقابلة الشكر تلك التي خرجت منها برعب . لقد شلّتها عيناه الصارمتان فتمتمت عبارة شكر، وتركت الغرفة وحس بعينين صارمتين تلاحقها .

بدأت تسمع زملاءها يتحدثون ويؤكدون على قوة شخصية الرئيس وصرامته في معاملة الموظفين والصغار منهم بصورة خاصة . اما الزميلات فكن يتحدثن كثيراً عن الرئيس

الوسيم الانيق باسلوب طبيعي لا تكلف فيه ، وكانت هي تعجب ان يبحن لانفسهن الحديث عنه بعدم كلفة، وحين يسألنها رأيها تهلع كأنما من يسألها هو الرئيس نفسه، وتشكر الله لان عملها لا يتعلق به بصورة مباشرة ، فهي تخاف الرجال وتذكر قول امها «الرجال يا ابنتي ، كل الرجال ذئاب» فنشأت وصورة الهلع وطلب النجدة تقترنان في ذهنها برؤية رجل .

والتقت مرة بالعينين الصارمتين في المصعد، فارتبكت، ولم تدر ما تعمل ، فكرت في ترك المصعد في الطابق الأول لاكمال طريقها الى فوق على الدرج ، ولكنها خجلت ان تمد اصبعها توقفه ، ولم يكلمها الرئيس وصعدت معه الى الطابق الاعلى ثم عادت فهبطت الى طابقها ، ولم تدر ان كان تصرفها صحيحاً ام معاباً ...

العينان الصارمتان تلاحقانها .. إنها تراهما في الملاحظات القصيرة المكتوبة على ما تطبع من رسائل. لم يعط لها كتاب للطبع الا وقرأت في ركن من الاركان اسمه .. اسم الرئيس يوافق على ما جاء في الكتاب .. وبدأت تفتش عن توقيعه وملاحظاته وتحس صرامة اسلوبه في التعبير فيزيدها هذا خوفاً منه ، وصار من طبيعة عملها التفتيش عن الملاحظة وعن توقيع صاحبها وعن قسوة العينين الصارمتين وعن الخوف منهما .

تنبهت يوماً الى رائحة عطر وصوت انثوي يناديها. وامامها كانت تقف غانية بطريقة حديثها ووجهها الجميل وما عليه من مساحيق سميكة وجسمها وما يرتدي من فستان صارخ اللون والخطوط.. ما الذي جاء بالغانية هذه الى دائرة رئيسها ذو عينين صارمتين » ؟

كانت تفكر في هذا حين فهمت من حديث ذات العطر ان الرئيس يطلب رؤيتها. الرئيس يطلب رؤيتها ؟ وما علاقة هذا الطلب بهذه الغــانية ؟ كلمة الرئيس جعلتها ترضخ بسرعة فقامت تسير كالمنوم تنويماً مغناطيسياً. وحين وصلت الى الغرفة فتحت ذات العطر الباب واشارت اليها بالدخول، وذهبت تجلس بكل هدوء اعصاب وراء طاولة عــلى الكرسي المخصص لسكرتيرة الرئيس. دخلت الغرفة ورائحة العطر تحجب ما امامها.

سمعت العينين الصارمتين تقولان « تفضلي » فتفضلت ووقفت جامدة. اشارت لها العينان بالجلوس فجلست منكسة الرأس، ترى عينين صارمتين وتشم عطراً قوياً.

سألها ان كانت تستطيع القيام بأعمال اضافية بعد فترة الدوام الرسمية، فأجابت بالايجاب رأساً، دون ان تفهم سبب جوابها. كانت تريد الانتهاء من هذه المقابلة بأسرع مـــا تستطيع. اخرج لها من درج مجموعة من اوراق، وعرض عليها ان تستعمل غرفتها وآلتها الطابعة ان كانت لا تملك

آلة طابعة في البيت، فشكرته وهي لا تدري ان كان عرضه يستلزم الشكر ، وسكت فعرفت ان المقابلة انتهت ، فعادت تشكره قبل الخروج ، .وحين شمت رائحة العطر عادت احداث هذه الفترة القصيرة تتشابك في ذهنها الحائر .

رمت الأوراق في الدرج دون تقليبها . خافت ان تفتح اوراقاً خاصة بالرئيس كانت في درجه وائتمنها عليها . لكن عليها ان تطبع هذه الأوراق ... عليها ان تقرأ محتواها . اغلقت الدرج مسرعة . عادت الى العمل . اصابعها لا تطاوعها على الضرب . فتحت الدرج قليلاً . ازاحت ملف الأوراق. فرأت مجموعة مكدسة فوق بعضها دون ترتيب . وعلى الصفحة الأولى وما برز من بقية الصفحات كانت كلمات مكتوبة بخط يد الرئيس .. فهلعت . كلمة (موافق) وتحتها التوقيع كانت تخيفها، فكيف بأوراق كثيرة مملوءة كلها بذات الخط ؟

اغلقت الملف وابعدت يدها المرتجفة عنه بسرعة .

وفي البيت لم تدر كيف تنقل الخبر لامها . كان عليها ان تروي لها كل القصة لانها ستعود الى المكتب ، تطبع تلك الأوراق . فرحت الام ، فمعنى هذا ان الرئيس راض عنها. وان عملها جيد بحيث اصطفاها من بين كل الموظفات الاخريات. لم تفكر في هذا الاصطفاء إلا الآن .

نعم لقد اصطفاها الرئيس، ولكن لم؟ واحست رائحة

عطر السكرتيرة . ولم تقل امها هذه المرة « الرجال يا ابنتي كل الرجال ذئاب » ارادت تذكيرها بهذه العبارة ثم سكتت واتعبها هذا السكوت .

وفي غرفتها في المؤسسة رأت عدداً من الزملاء والزميلات يقومون بأعمال اضافية ، فاطمأنت ثم شعرت ببعض الضيق .

كانت مادة الأوراق بحثاً اقتصادياً كله احصائيات وارقام ، فهمت منها ان الرئيس يؤلف كتاباً في علم الاقتصاد او يعد تقريراً احصائياً .

مر يومان على انتهاء الطبع ، وهي تفكر في طريقة لايصال الاوراق لصاحبها ، واستقرت على فكرة ارسالها بطريقة ما .. ولكن ما هي تلك الطريقة ؟

وذهبت تحمل الأوراق الى غرفة الرئيس وهي لا تدري كيف واتتها الشجاعة ، ولكنها توقفت عند طاولة السكرتيرة حين رأت اناقتها وجمالها وشمت رائحة عطرها . وجدت نفسها تضع الأوراق امام ذات العطر ، واصبح معتاداً بعد ذلك ان تأتي الأوراق بواسطة السكرتيرة وتعود الى الرئيس بالطريقة نفسها .

قالت امها انها اخطأت ، فمن مظاهر الاحترام ان تعطي الأوراق وتأتي بها بنفسها ... ولم تفهم سر هذا التحول في نظرة امها الى الرجال .

في اليوم التالي استدعاها الرئيس الى مكتبه وشكرها على

اتقان الطباعة وقال انه مستعد لمساعدتها ان كان هناك ما يضايقها .. « نعم هناك ما يضايقها وما تحتاج لمساعدته فيه، ولكنها لا تدري ما هو وان كان يمكن شرحه للرئيس » .

وفي البيت تأملت نفسها في المرآة، فرأت جسماً ضئيلاً فوقه ثوب بسيط وفي عينيها نظرة استخذاء . تمنت لو كانت امها جميلة تورثها جمالها او كان ابوها غنياً يورثها ثروته . ذهبت الى فراشها وهي تتمنى لو كانت مدرّسة في مدرسة ليس فيها ذئاب .

حملت لها السكرتيرة مجموعة اكبر من الأوراق واخبرتها ان الرئيس يستعجل اتمامها . عليها ان تبقى فترة أطول بعد خروج الزملاء والزميلات . كانت وحدها حين سمعت صوت رنين الهاتف . لم يكن المسؤول عن الرد عليهموجوداً ، فتركته يرن، وضايقتها مواصلته ، فقامت تجيب وهي تحس نفسها تتعدى حقوقها .

ومن هناك سمعت صوت رجل يحييها ويسألها ان كانت متعبة .

سألته عن اسمه معتذرة عن عدم تمييز الصوت، فذكر لها اسماً جديداً ، فعادت تعتذر عن جهلها فكرر لها الاسم كاملاً ... واحست بصوتها يختنق .. كان الرئيس من يحدثها . قال انه سيأتي لرؤيتها لعمل مهم .

تأملت الغرفة الفارغة وتذكرت قول امها « الرجال يا

ابنتي ... كل الرجال ذئاب » ثم تذكرت صورتها في المرآة .. فعادت تجلس الى الآلة تطبع .

امتدت يد تمسك بيدها وصوت الرئيس نفسه يقول :

« لقد تعبت ، ارتاحي قليلاً » .

امسك بيدها وسار بها خارجاً وفتح لها باب سيارته فدخلتها ، وبدأ يدير محرك السيارة ، وسارت بهما السيارة وهي ساكتة طائعة لا تدري لم سكتت ولمَ تطيع .

وفتح لها الرئيس الموضوع رأساً فقال : انه يريد ان يتخذها صديقة له بكل ما تحمل الكلمة من معاني الصداقة بين المرأة والرجل . ووعدها بزيادة راتبها وبابقائها في العمل ، وقال : انه معجب بهدوئها وتكتمها .

كان الطريق مملوءاً بالمارة ، ومقبض الباب لصق كفها ، سمعت امها والسكرتيرة ذات العطر والزملاء والزميلات وضربات الآلة الطابعة تدق ضربات متوالية .. ثم رأت صورتها في المرآة .. ووصلا منطقة مهجورة وسارا في طريق وعرة والرئيس يعيد الحديث نفسه بأسلوب ثان وثالث اوضح وألين واكثر اغراء وهي مشلولة صامتة .

وقفت السيارة امام مطعم صغير منعزل ، ونزل يفتح لها الباب فتبعته . اجلسها على كرسي فجلست ، وجلس قبالتها يتأملها ، وفجأة بدأت ترتجف ، وكان ما تلفظته بعد هذا

الصمت الطويل (الجو بارد جداً هنا) . وعادت تنكس رأسها .

رأت ظله واقفاً، واحست شيئاً يوضع على كتفيها وصوته يطلب فنجان شاي ساخناً .

رفعت رأسها ، كانت سترته تغطيها، ونظرة حنان تشع من العينين الطيبتين .

عصر اليوم التالي خرجت ثم عادت فأعدّت فنجان شاي ساخناً، وسحبت معها شالاً سميكاً قبل ان تترك البيت .

السجادة الصغيرة

لا لن اعود الى البيت .. لن أعود، وليقل الناس عنّي ما يريدون .. لن اهتم هذه المرة بأقوالهم .. سأحقق ما في نفسي ، سأكونها ، ولطالما تمنيت ان اكون نفسي كما اريدها ان تكون لا كما يريدها لي الآخرون .. ثم انتبهت الى انها تقول هذه الكلمات بصوت يُسمع ، حتى ان بعض المارة استوقفتهم غرابة تصرفها فسكتت واستمرّت تحدث نفسها صامتة ... « سأقول لعمي انه اسوأ عم في الدنيا ، وان زوجته شر ما خلق الله .. لقد سكتُّ فترة طويلة رأيت فيها أثاث بيتنا وحوائجنا وحوائج امّي تسيء استعمالها ايد غريبة ، ولكني اليوم لم اعد اتحمّل السكوت، لا . استطيع ، لا استطيع » . ثم احست بأنها على وشك ان تصرخ او تتشبث بأحد المارة لتروي له ما حدث لها اليوم ، فاستنجد تفكيرها بخالتها .. خالتها التي تحبّها وتغمرها بجو من الحنان والمودة لا تجده في بيتها . ستذهب لخالتها ، وترتمي على صدرها وتبكي وتبكي وتروي لها كيف انها

حاولت اليوم ارجاع السجادة الصغيرة الحمراء إلى المقعد الذي في الزاوية كما كانت تفعل امها . لقد احست انها يجب ان تفعل هذا ، وفاء لامها وثأراً من الاهمال الذي لقيه فرش بيتهم من زوجة عمها . ان مكان السجادة الصغيرة الحمراء ليس امام العتبة ... انها ليست ممسحة تمسح بها الاقدام . ولكن زوجة عمها سحبت السجادة الصغيرة الحمراء من على المقعد ورمت بها ثانية على العتبة وهي تقول :
« لمَ لا تهتمين بشؤونك الخاصة بدل التدخل فيما لا يعنيك » ؟
لا يعنيني ! ! الا يعنيني ان اعتني بفرشنا وارتبه كما كان في منزلنا ؟.. منزلنا ..؟ .. منزلنا ! ! .. لقد مرت فترة طويلة جداً منذ ان استعملت ضمير المتكلم : منزلي ومنزلنا ! اصبحت تقول : بيتكم وفرشكم وتفعلون وترتبون ، اذ لم تعد تحس يوماً واحداً بعد انتقالها الى السكنى في بيت عمها ان هناك شيئاً في الدنيا يخصها هي او ان لها الحق في ان تنسبه الى نفسها . وكانت تسمع زوجة عمها تقول : بيتي وفرشي .. مطبخي .. و ... لها كل الحق ان تقول هذا ، ولكن ترى أليس لها هي الحق في ان تنسب الى نفسها شيئاً ؟ اي شيء ؟ اي شيء ..؟

وعادت بأفكارها الى خالتها ، ستروي لها تماماً ما تقاسيه .. لقد كتمت عنها ما تعاني اذ لم تر فائدة من تحميل خالتها العزيزة همومها ، ان عمها لن يسمح لها بالسكنى مع خالتها فهو لا يرضى ان يقال عنه انه عجز عن اعالة ابنة اخيه

وهو ولي امرها الشرعي.

وزوج خالتها ؟ اتراه يرضى ان يعيل فتاة غريبة عنه ؟ انه لطيف دائماً معها وهو يعاملها بكل حنان، ولكن هل يعاملها هكذا لو كانت تعيش معهم وكان مسؤولاً عن نفقاتها ؟ ترى أهنــاك فائدة ترجى من اخبار خالتي بما اعاني ؟ لا .. سأذهب الى بيت ابنة عمّي ، انها على كل حال قريبة عمي ، وقد تحاول التفاهم معه ، وهي لم تكن قط صديقة لزوجة خالها فستفهم تماماً ما اقول او قد تكون راغبة في ان يكون في الجو شيء يعلن عن سوء تصرف زوجة خالها.

وارتاحت لهذه الفكرة ، فكرة الذهاب الى ابنة عمتها لتفتح لها نفسها وتقول لها كل شيء .. وقد تمكث عندها فترة يحس فيها عمها بتقصيره فيأتي اليها ليصالحها ، وستخبره كيف تعامله زوجته ، وسيكون جو بيت ابنة اخته اصلح للتفاهم في هذه الامور من بيت خالتها الغريبة تماماً عن عمها . ولم تشعر الا وقد قطعت في سيرها شوطاً من الطريق ابعدها عن موقف السيارات ، ووجدت في السير متنفساً وان كان الحديث الى نفسها يتعبها كثيراً .

لو كانت تستطيع ان تعمل وتكسب دراهم إذن لأغنتها الدراهم عن كثير من المشاكل التي تلاقيها ، ولكن ما ذنبها ، إذا كان عمها قد اوقفها عن الدراسة حين توفي والدها ؟ وهي لا تستطيع ان تعمل بائعة في محل او ما شاكل

هذه الاعمال ، ومحيطها المتحجب لا يسمح بفكرة القيام بعمل يتنافى مع المحافظة كما يحلو لعمها ان يسمي الرجعية وضيق العقل... ليتها تقدر ان تقول له رأيها فيه وفي كل ما يفكر ؟ ... ليتها...

وكانت احياناً تجد ان نصح الصديقات بقبول فكرة الزواج امر معقول ، ولكن ليتهن يفهمن ما تفهمه هي من الزواج . انها تريد شخصاً مثقفاً يرفعها من وسطها العائلي ، فهي واثقة من قابلياتها الكثيرة ، ولكن كيف يمكن التنبؤ بوجود انسانة مثلها في محيطها العائلي الذي يدل مظهره على عكس مـــا في نفسها تماماً ؟ ولو قبلت بزوج ترضى عنه العائلة ثم ظهر لها انه نسخة من عمها لكان في هذا انهيار لامانيها ، وما دامت لم تتزوج بعد فلا يزال في نفسها مجال لتأمل وتمنّ وكم يسعد الفرد بأمانيه وان لم تتحقق.

واحست بيدها تطرق باباً . انه باب بيت ابنة عمتها . وفتح لها الباب ، فسمعت اصواتاً تصدر عن غرفة الضيوف ، كان هناك عدد من الزائرات ، فدخلت ورحب بها الجميع ، وكان الحديث يدور عن صديقة غائبة ، وظهر لها ان المتحدث عنها غير سعيدة . فأحست ان الكلام لم يكن يخالطه احترام لهذه الغائبة غير السعيدة . وبدأت الحاضرات يحملن هذه الغائبة غير السعيدة مسؤولية شقائها ويضمنّ كلامهن مديحاً غير مباشر لانفسهن . وتذكرت فجأة انها انما جاءت لتشكو

همومها ومتاعبها .. ترى لو عرفت الزائرات هذه الحقيقة .. حقيقة انها غير سعيدة ، فهل كن يرحبن بها كما فعلن ..؟ لقد استطاعت بمظهرها الهادىء وكبريائها ان توهم الناس انها سعيدة ، فلو خلعت هذا القناع وتنازلت عن كبريائها فماذا سيكون ؟ لن يتغير شيء في حياتها ، ولو زاد شيء لكان فقدان احترام الآخرين وزوال اعجابهم ، والناس لا يحبون ولا يحترمون غير السعداء .. الناس لا يحترمون غير السعداء ..!. ماذا لو عرفت الز ائرات انها واحدة من غير السعيدات ؟ ومن غير ان تدري كيف ، بدأت تتحدث عن زوجة عمها وحبها لها واهتمام عمها بأمرها ... تأملت عيون السامعات وكلها اصغاء واعجاب واحترام فزادها هذا حماسة في الحديث .. كالت المديح لعمها وزوجته فاحترمت هي ، اذ حسبتها الحاضرات تلك المدللة المحبوبة السعيدة حقاً ، احتقرت غباوتهن ونظرت في عيني ابنة عمتها ، فرأت نظرات الاعجاب والاحترام نفسها ! ولوهلة قصيرة خيل لها ان ما قالته صحيح ولكن سرعان ما استيقظت من هذه النشوة ، فقامت مسرعة تترك بيت ابنة عمتها ، وسارت في الطريق وهي تكاد تعدو تريد الوصول الى بيت خالتها .

وعند الباب لقيت خالتها على وشك الخروج . سترجع خالتها اذ ستقول لها انها تحتاجها في امر مهم لا يحتمل التأجيل ، وما كادت تفتح فمها حتى بادرت خالتها بالترحيب وبشكرها

على المجيء ، اذ كانت في طريقها اليها لتأخذها معها الى السوق ، فهي تحتاجهـــا لتساعدها في اعداد وليمة كبيرة .. وطرقت كلمة وليمة سمعها كأنها آتية من بعيد .. لقد مر زمن بعيد منذ اشتركت في ولائم ، والآن وفي مثل هذا اليوم بالذات ، تختار خالتها هذا الوقت لاعداد وليمة ؟ ارادت ان تعتذر عن المساعدة وتشرح لخالتها نفسيتها المتعبة ومزاجها الذي لا يوافق جو الولائم ولا يستطيع المشاركة فيها .. انها متعبة مرهقة ولكن .. انها مدينة لخالتها بأشياء كثيرة ، فطالما أحبتها واهدتها وأكرمتها ، وقد حان اليوم وقت ترد فيه لخالتها بعض افضالها ، فكيف تعتذر عن المساعدة ؟ انها أسيرة الفضل ، وما دامت خالتها في نشوة اعداد وليمة فلا حق لها ان تعكر عليها هذا الجو . ستشارك في الاعداد لهذه الوليمة .. انها ليست انساناً يحق له كالآخرين ان يظهر شعوره ، عليها ان تكظم آلامها الى فترة ما بعد وليمة خالتها . وآلمها هذا كثيراً . عليها ان تتألم ان تألم الآخرون وان تفرح اذا فرحوا وتضحك معهم وهي تكاد أن تتمزق ، لان لهؤلاء الآخرين فضلاً عليها ولا فضل لها على الناس حتى يحق لها ان تطلب منهم مشاركتها وجدانياً . وامتلأت عيناها بالدموع وهي تسير بجوار خالتها ، ولم تسمع شيئاً مما قالته عن المدعوين وانواع المأكولات التي ستقدم . بدأ تفكيرهـــا يبحث عن شخص قريب اليها نفسياً تشكو له ولو لم يستطع مساعدتها ، شخص تفتح له نفسها ، تخبره عن كل شيء ... كل شيء .

وتذكرت احدى صديقاتها : انها مثلها غير سعيدة ، وهي لذلك ستفهمها ، صحيح انها لن تحل لها شيئاً من مشاكلها ، ولكن لا بأس من التنفيس عن هذا الهم الذي يجثم على صدرها . واستأذنت من خالتها بعد ان وعدتها ان تأتي لتساعد في اعداد الوليمة .

ووجدت الصديقة انساناً جديداً . وجدتها في نشوة وسعادة جديدة ، انها تحب ، والمحبون اانانيون اذا كانوا موفقين في حبهم .

انها لا تفهم ان يكون الحديث عن غير حبيبها ، فهي تتحدث عنه ولا تمل . ومضت تتحدث عن سعادتها واحلامها ، انها مشغولة بهما وهي لم تعد تستطيع ان تفهم كيف يكون الفرد تعساً ! كيف يتألم ! كيف يمكن ان يشكو !

ان ما في نفس صديقتها من رضى على الدنيا يبعدها تمام البعد عن جو الشاكين ، اذن فلتدعها في نعيمها ولتبتعد هي بهمومها ، فلا حق لها في تنغيص جو المحبين .

وعادت تسير وتسير ، ترى الناس ولا تراهم ، وحين سمعت صوت زوجة عمها يسألها :

ــ اهذا انت ؟

اجابت من غرفتها :

ــ نعم ، لقد عدت .

حكاية ابْريق الزيت

ـ سعدون .. سعدون

وجاء الصغير سعدون راكضاً والبسمة على شفتيه وخديه وعينيه ، ونظر الي بتلهف ينتظر مني ان اعطيه نصيبه اليومي من الدراهم .

ـ اتريد ان اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟؟

ونظر سعدون بدهشة وقال :

ـ وما هي حكاية ابريق الزيت ؟

ـ ان قلت ما هي حكاية ابريق الزيت او لم تقل ، هل اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟

ـ نعم اروِيها من فضلك .

ـ ان قلت اروِيها او لم تقل هل اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟

فقال مستسلماً :

ـ كما تريدين

ـ ان قلت كما تريدين او لم تقل هل اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟

ونظر الصغير سعدون الي نظرة عتاب حائرة وفتح فمه ثم اغلقه ووضع اصبعه الصغيرة على فمه دلالة على انه لن يتكلم . وحدق في صامتاً فقلت :

ـ ان سكت ام تكلمت هل اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟

وحين تعب سعدون من الجواب ضحك ليخفي اضطرابه ولم ارحم انا ضعف الصغير فعدت اسأل :

ـ ان ضحكت ام لم تضحك هل اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟

ونظر سعدون الي محدقاً ولم تحمل لي عيناه اي معنى ، فبادلته انا التحديق منتصرة . ثم رأيت عيني سعدون تمتلئان بالدموع . لقد عجز سعدون الصغير ابن ابي سعيد بواب بيتنا الكبير عن مجاراتي في التحدي .. مجاراتي انا ساكنة ذاك البيت الكبير وابنة صاحبه التي سولت لي نفسي ان افرح بانتصاري على طفل فقير مسكين .

احسست اني اريد ان اصفع نفسي ، وشعرت بالخزي يتملكني فاحتضنت الصغير ، وبدأ هو ينشج بالبكاء بصوت عال ، فقد احس ان فترة تكبيلي له انتهت واصبح له الحق في ان يعبر عن مشاعره .

كنت مستعدة حينذاك ان اعطي سعدون كل ما استطيع كي اراه ضاحكاً ثانية ... مرحاً مثلما كان قبل ان ابدأ؛ انا الفتاة الناضجة تلميذة الجامعة، استغل سذاجته وبراءته وضعفه لابانة مهارتي .

كيف سولت لي نفسي ان استغل جهل سعدون بالحكايات اللبنانية لابيع على حسابه حصيلة معلوماتي من اسفاري الكثيرة الى لبنان ؟ واتبجح امامه بما يعرفه كل طفل لبناني ويجهله سعدون لا لانه اقل منهم ذكاء او دراية ولكن لأنه لم يزر لبنان ولم يتعرف على حكاياتها ؟؟

وكفّ سعدون عن البكاء ، لقد كان طيباً ينسى الاساءة بسرعة . وفتحت حقيبتي لاعطيه اضعاف ما كنت اعطيه كل يوم ، فعادت الابتسامة الى شفتيه ، ولكنها لم تصل الى خديه او عينيه . لقد كانت الدموع تملأ عينيه وتغطي خديه .

مشيت لاهرب من منظر سعدون ، ولكن صورته كانت امامي طول الطريق الى الجامعة . كنت اتمنّى التكفير عن ذنبي بأية طريقة . كنت مستعدة ان افرغ حقيبتي وخزانتي لافرقها على الآخرين اذا كان يريح ضميري وان الاطف كل الناس واجاملهم اذا كان هذا يخفف عن كاهلي ثقل اساءتي لسعدون .

واقتربت من باب الجامعة الكبير ورأيت الطلاب والطالبات

يتمشون في الفناء... تمنيت لو كنت اي واحد منهم ممن لم يسيء لسعدون. مررت بالجنائني فاستعجلت القي عليه تحية الصباح قبل ان يبدأها هو كما اعتاد ان يفعل. ورد تحيتي مبتسماً فوقفت امتدح له ازاهيره وحديقته وانا اتساءل في سري: هل يرضي سعدون ما فعلت الآن؟ وعدت امشي وعينا سعدون الممتلئتان بالدموع امامي كيفما ادرت وجهي.

صعدت الدرج، وقرب النافذة التي تطل على الساحة الكبيرة كانت صديقتي سميرة تتحدث مع كريم وتصرخ في وجهه وهو يحاول تهدئتها وهي لا تريد ان تصغي ولا ان تهدأ او تفهم.

واصلت صعودي الدرج وانا افكر في سميرة وكريم.. اذن لقد فعلتها سميرة اخيراً. كانت تأتيها رسائل من كريم يحدثها فيها عن حبه وهيامه وارقه ولوعته ويطلب منها ان تلتفت صوبه حين ينتظرها على باب المكتبة، وان تسمح باستلام رسائله دون غضب، وان لا تنظر اليه شزراً حين يلاحقها في اروقة الجامعة.

كان لا يطلب منها الا السماح له بالاستمرار في حبه لها. ولكنها وهي ابنـــة البيت العريق الغني كيف تسمح لفتى نكرة لم يسمع احد باسم اسرته، ويخجل هو عن ذكر عمل ابيه، ان يستمر في جرأته؟

كانت قد استشارتنا في امر الرسائل وجعلتنا نقرأها

لتعرفنا على اهتمام الآخرين بها ولتثبت لنا انها فتاة محافظة متزنة لا تسمح للرجال بملاحقتها. وطلبت نصيحتنا في اقتراحها ان تعرض الأمر على معاون العميد لشؤون الطلبة كي يوقف كريم عند حده. وطبعاً وافقنا كلنا على حسن رأيها وصواب تفكيرها، واعلنّا هذا جهاراً لتُفهم كل واحدة منا الاخرى انها محافظة رزينة.

اما اليوم فحين رأيت سميرة تؤنب كريم، وهو يتوسل اليها ان تصغي اليه، وهي لا تريد وتبكي وتصرخ لتسمع الآخرين والاخريات انها نفذت تهديدها،

اليوم شعرت بأسى .. تألمت لكريم .. ما ذنبه اذا كان قد احب فتاة اسرتها عريقةغنية واسرتههو فقيرةمغمورة ؟..

وعادت الى ناظري صورتي وانا اعذب سعدون. هل أتدخل بين سميرة وكريم واوبخها امامه؟ هل سيستفيد كريم من تدخلي شيئاً؟ ماذا يفيده لو افهمته اني رأيت سميرة تهينه فأزيد الطين بلة بتدخلي؟

اتراني حقيقة متألمة لأجل كريم؟ ام اني اريد التكفير عن اساءتي لسعدون بمحاولة اسعاد جميع الناس؟ اتراني اشفقت على كريم لأن سعدون بتأنيبه الصامت لي اثار فيّ كل كوامن الانسانية التي كنت قد خنقتها حفظاً للمظاهر؟

وفضلت ان لا اتدخل بين سميرة وكريم، فمشيت ودخلت قاعة المحاضرات واخذت مكاني كعادتي في الصف الأول،

وكالعادة دخل استاذنا يستند الى ذراع سكرتيره ، فقد كان استاذنا ضريراً . انا ادري انه ضرير واراه تقريباً كل يوم منذ ثلاث سنوات . فما الذي آلمني اليوم لانه لا يستطيع ان يبصر ؟ والسكرتير كان يبدو عليه الاستسلام للقضاء والقدر بصورة موجعة . مسكين هـــذا السكرتير ! ان عليـــه ان يقرأ ما يريد الاستاذ ان يسمع ، وان يعيد الجمل التي يحلو للاستاذ اعادتها ان لم تكن الجمل التي لم يفهمها ، وعليه ايضاً ان يذهب الى الاماكن التي يُدعى الاستاذ اليها . وتصورت الاستاذ في حفل امامي يجلس على الكرسي المعد للضيوف والسكرتير يتركه بعد ان يطمئن الى ان جلسته مريحة ليقبع هو في زاوية ينتظر الى ان ينتهي الحفل ليعاود عمله اليومي الرتيب . قد يكون السكرتير ذا طموح ونفس ابية لا ترضى ان تعيش هكذا عيناً يبصر بها الآخرون واداة يسجل بها الآخرون ما لا تريد هي تسجيله . تألمت للسكرتير وللاستاذ الضرير معاً . وانتهت ساعة المحاضرة ولم اسجل على الدفتر منها غير صورة ابريق وعينين مملوءتين بالدموع .

وخرجت من القاعة واقتربت مني زميلتي واعدة ترافقني في طريقي الى غرفة الطالبات ، وبدأت تحدثني عن الحب الجديد (لشاعر الغزل) كما سمينا احد شعراء صفنا الذي شاء ان يتغزل بمعظم فتيات الجامعة . لقد كان يخيل له في كل فترة حب جديد ، انه مولَّه ولهاً حقيقياً ولا تكاد تمر

بضعة ايام قد تطول الى اسابيع لا تصل الشهر حتى يكتشف انه يحب من جديد . لقد كان يقول عن نفسه انه في حالة حب دائم ، ولا فرق لديه ان كان الحب جديداً ام قديماً او معاداً .

وكان اكتشافنا للمحبوبة الجديدة امراً مسلياً نشهد فيه بالبراعة للمكتشفة التي تكون احياناً قد تلقت الاخبار عن زميل ، ولكنها لا تعترف بهذا خوف ان نعرف صلتها بالزميل فتصبح هي نفسها مادة قصـــة غرامية جديدة نضيف عليها من خيالنا الواسع الشيء الكثير . وكانت محبوبات (شاعر الغزل) يحاولن التخلص من هذه التهمة وينفينها بشدة .

هذا ما كنا نعرفه عن شاعر الغزل ومحبوباته الكثيرات الى ان حدثتني (واعدة) اليوم عن (عزة) التي قيل لها ان قصيدة غزل نظمت فيها ، فذهبت الى الشاعر وكان في جمع من اصدقائه وطلبت منه ان يسمعها القصيدة ... ولم يصدق المسكين اذنيه وارتبك واحمر ، وحسب هذا مقلباً من الزملاء ، ولكن عزة اكدت له انها تريد سماع الغزل فيها .

وبعد ان سمعت القصيدة ربتت بيدها البضة الأنيقة عـــلى كتفه ، وطلبت منـــه ان يسمعها كـــل قصيدة ينظمها لها . شاعر الغزل يحب اليوم حباً حقيقياً ، كان هذا حدث اليوم بل الشهر . شاعر الغزل يحب حباً حقيقياً . عبارة

تناقلتها اروقة الجامعة وسمعتها انا من واعدة في ذلك اليوم . ضحكت واعدة لوقوع الشاعر في حب حقيقي .. ولم اضحك انا .. لم اكن في حالة تصلح للضحك .. وطالما كنت اطرب لحكايات شاعر الغزل الجديدة، ولكني اليوم احسست انه سيتألم ما دام يحب حباً عميقاً ، وكنت في نفس الوقت اعرف عزة وكبرياءها معرفة حقيقية فهي لا يمكن ان تهتم بشاعرنا ، ولكنها تريد ان تلهو به . هل اذهب اليها واطلب منها ان تكف عن العبث بقلوب الناس ؟.. ماذا ستظنني ، ستقول إني اغار منها ؟ ولكن الشاعر ، الشاعر المسكين الذي ادرى كم كان يتعذب حين كان يحب حباً عارضاً فكيف إذا احب حبـــاً حقيقياً ؟؟ كان حين يلقي بعض قصائده في حفلات الجامعة يبكي .. كيف سيلقي القصائد الجديدة وهو في حالة حب عميق ؟؟ وتمثلت امامي عيني الصغير سعدون تبكيان .. لا اريد لاحد ان يبكي .. سأمنع بكاء شاعر الغزل ، سأطلب من عزة ان تفهمه انها لا تحبه ، او قد احدثه هو عن حقيقة عزة .. ولكن .. لعل الحب الحقيقي الطويل الامد يعمق شعره ويصقل نفسه المذبذبة ! لعل بكاء حقيقياً يجعله ان ينتج شعراً حقيقياً وليغفر لي الصغير سعدون ان لم امنع دموعاً من الهبوط .

دخلت غرفة الطالبات، وكانت مزدحمة بهن وضجيجهن يتعلق بالسقف فاستلقيت، على كرسي ، اتأملهن ذاهبات آتيات بين المغاسل والمرآة .. تقف كل واحدة بدورها

لتمشط شعرها وترتب ثيابها وتتأمل نفسها بنظرات فيها اعجاب من البعض ويأس من البعض الآخر . ولا ادري كيف شردت افكاري الى مصنع قناني الكوكا كولا الذي كنا قد زرناه مع استاذنا . كانت القناني مصفوفة بترتيب ، الواحدة اثر الاخرى على شريط طويل ، ويتحرك الشريط محركا القناني معه ليتوقف في فترات قصيرة تكفي لتعقيم القنينة في مرة ، ولملئها في مرة ثانية ، ثم لاحكام الغطاء عليها في مرة ثالثة . كانت القناني مسيّرة ، فهي لا تستطيع هرباً من مكانها ولا تغييراً لنظام التعقيم فالملء ثم التغطية . رأيت الفتيات قناني كوكاكولا . تدخل الواحدة من الباب .. ترمي كتبها على المنضدة التي في وسط الغرفة .. تتجه الى المغسلة ثم الى المرآة تتزين وتترتب وتعود الى الباب خارجة منه .

تبسمت أتفرج على القناني رائحة غادية امامي ، ونسيت لوهلة دموع الصغير سعدون .. ثم طرقت سمعي كلمة (زيت) كأنها ناقوس يوقظني . واعتدلت في جلستي ادير رأسي افتش عن مصدر كلمة الزيت ، فسمعت تلميذة بجواري تخبر زميلتها عن تأثير الزيت في جعل الشعر ناعماً لامعاً ، وبينما هي مستمرة في تعديد مزايا الزيت .. مددت يدي أتحسس شعري وفرحت ان وجدته يابساً ، واقسمت لسعدون اني لن استخدم الزيت لتحسينه حتى ولو اصبح جافاً كالحطب .

كنت لا ازال امسك بخصلة من شعري اتلذذ بتحسس جفافها ، حين دخلت الصف، واقترب مني زميل جديد جاءنا من الجزائر ، سألني معنى كلمة انكليزية . فهو يحسن العربية والافرنسية . اما الانكليزية فكانت لغة جديدة عليه . فاخبرته عن معناها ورأيته يدونها وهو يقرب الدفتر من عينيه كثيراً مع كونه كان يلبس النظارات .

وخطر لي ان نظارته لم تعد صالحة، ومع ذلك فهو لا يستطيع استبدالها . فكرت ان اعرض عليه تدوين معنى الكلمة على دفتره ولكني توقفت رأساً .

ماذا : هل اريد ان اؤلم انساناً جديداً ؟ اما كفاني ما سببته لسعدون ؟ هل اريد ان افهم الزميل الجديد بتحسسي لضعف عينيه ! وعدم صلاح نظارته ! وعدم مقدرته على استبدالها ؟ ليتني استطيع ان اعمل عملاً غير مؤذ اليوم .

* * * *

تذكرت الآن ذلك اليوم من ايام التلمذة حين كنت اقرأ خبر ترفيع سعيد ، الى رتبة مدير عام ، سعيد ابن ابي سعيد بواب بيتنا الكبير واخ الصغير سعدون . كان الخبر منشوراً في الجريدة التي يملكها ويرأس تحريرها كريم الذي احب يوماً سميرة وعدّت حبه لها اهانة .

لقد اصبح كريم صاحب اوسع جريدة انتشاراً واصبح قادراً على رفع الناس بكلمة منه وانزالهم بكلمة اخرى .

اما سميرة التي احبها كريم والتي كتب لها في احدى رسائله التي قرأتها «لا تسأليني لم احببتك . الحب عندي مثل الموت والولادة قضاء من الله وقدر لا ندري متى وكيف يحلّ بنا » . سميرة تلك تزوجت ثرياً بعد تخرجها من الجامعة ، مات وعلى الاصح قتل في حوادث دامية وقعت في مدينته .

والحديث عن سميرة وكريم يجرنا الى الحديث عن اشخاص ذاك اليوم الذي لا استطيع نسيانه ، اليوم الذي ابكيت فيه سعدون . اما شاعر الغزل فقد اصبح شاعراً سياسياً بعد ان تزوجت عزة من عميد الجامعة . فقد قرر شاعر الغزل ان يدخل معترك السياسة ليصلح الاوضاع الاجتماعية ويزيل الفوارق بين الطبقات ويظهر انه وجد قابلياته اخيراً ، فهو اليوم من اشهر الشعراء السياسيين ومتزوج من الوحيدة التي احبته والوحيدة التي لم يستطع ان يحبها .

الاستاذ الضرير لا يزال يعمل في التدريس في الجامعة وقد ابدل عدداً من المرافقين بعد ان فارقه (السكرتير) الذي عاصرنا ، وذهب في بعثة لدراسة التمثيل الى اميركا وقد قرأت مؤخراً انه يعمل على مسارح نيويورك بنجاح .

زميلنا الجزائري عاد الى بلاده بعد تخرجه واشترك في الجهاد ، ولكنه قتل قبل اعلان الاستقلال ببضعة اسابيع .

اما الآخرون فلم اعد اسمع عنهم شيئاً . حتى سعدون لا اعرف عن امره شيئاً ، ولكني متأكدة انه لا يبكي الآن .

إجَازة مَرضية

ـ انا في حاجة لاجازة مرَضيَّة .

رفع المدير رأسه يسأل ـ : هل انت مريض ؟

ـ انا في حاجة لإجازة مرضيّة .

ـ لم لا تطلب اجازة اعتيادية ولك الحق فيها ؟

ـ انا احتاج اجازة مرضية .

ـ اذا كنت متأكداً ان الطبيب سيمنحك اجازة مرضية، فاذهب في طلبها .

ـ اريدك قبل ذهابي ان تعترّف معي اني في حاجة لاجازة مرضية .

اطال المدير النظر اليه واجاب : انت حقاً في حاجة لاجازة مرضية .

ترك المدير وفي عينيه نظرة امتنان وهرع خارجاً . عبر غرفته فرأى كرسيه فارغاً والأوراق مكدسة على طاولته . النافذة بجوارها مفتوحة . خطا متقدماً ليغلق النافذة. ثم ارتد ..

مدّ يده يرتب الأوراق ثم ارجعها ، رفع ثقالة الأوراق يقاوم بها الهواء ثم اسقطها فارتطمت بالأرض . مد قدمه يدفعها فقبعت في الزاوية .

ترك الغرفة ومنظر ثقالة الأوراق القابعة في الزاوية يسعده .

خمسة شهور وتسعة أيام طوال مرت وهو محتفظ بكبريائه ، واليوم يجد نفسه وجهاً لوجه أمام خديعته لنفسه .

لو ترك نفسه ترتمي على كتف ؟ اي كتف وتبكي ؟؟ لعاش أيامه وساعاتها تذكّره دقائقها وثوانيها بمأساته ، ولفقد نظرات الاعجاب في عيون زملائه .

خمسة شهور وتسعة ايام طوال مرت وهو يتظاهر بعدم الاهتمام ويواظب على عمله كأن لا شيء حدث في الدنيا . اذا كانت الشمس لا تزال تشرق صباحاً وتغيب مساء فشمسه هو غابت الى حيث لا شروق .

والآن وقد نجح في الهروب يحس انه قد اغتال من عمره خمسة شهور وتسعة ايام واربعين دقيقة طوالاً ، خديعته لنفسه تشلّه .

وقفت امامه سيارة اجاب بنعم حين اخبره السائق عن الخط الذي يسيّر في مداه سيارته . نزل كل الركاب في منطقة البرج . نظر السائق اليه نظرة طويلة وهو ينزل . لم يدر أكانت تأنيباً لتأخره في النزول ام استغراباً لتبكيره .

فهو لا يتذكر اسم المنطقة التي ينتهي عندها خط السير. يذكر انه قال نعم حين سئل. لقد نسي ما قيل له .. هو ينسى! هو ينسى! ودع السيارة وسائقها بنظرة شكر .. لقد بدأ ينسى.

سمع باعة الصحف ينادون (مذكرات الامبراطورة ثريا) اسرع في خطواته يهرب من حديث الذكريات.

وصل مكاناً يحتشد بالناس والسيارات وهناك من ينادي الى بعلبك. الى بعلبك .. صعد السيارة وجلس قرب النافذة، وحين سمع من يسأله ان كان المقعد المجاور له محجوزاً أجاب «نعم» .. ثم تذكر .. انه غير محجوز .. لن تصعد هي الى جواره .. وادار رأسه يفتش عن السائل فوجده لا يزال يفتش عن مقعد خال فكاد يصرخ فيه «اجلس حيث تشاء .. لا تصدق ان هناك مكاناً محجوزاً .. المكان المحجوز سرعان ما يفرغ .. اجلس فيه قبل ان يمتلكه غيرك .. و ..».

وقفت السيارة في ساحة المدينة. رأى حشد الناس وضجيجهم فأحس أمام هذا الازدحام بالفراغ .. انه وحيد خائف .. الباعة ينادون على بضائعهم المسكوبة على الأرض. الفاكهة تملأ الساحة. رائحتها تملأ الهواء وألوانها البراقة تغطي الضوء. لا شك انها دون مذاق .. لا تكفي الرائحة والألوان لاعطاء طعم لذيذ.

تقف سيارة ينزل منها اناس غرباء بلغتهم وزيّهم . يجد نفسه يصعد الى تلك السيارة .. يعود الغرباء ، ينظرون اليه ولا يتكلمون ولا يسألونه لمَ صعد الى سيارتهم .. أكان يريدهم ان يسألوه ؟ لا يدري.. تتوقف السيارة عند القلعة ، ينزل السياح وهو معهم . بدأ الدليل الشرح فتبعهم. ويرى نفسه مصغياً للشرح « هذه الحجارة حملها سبعون ألف جندي .. ليضعوها هناك على ذاك العمود .. هذه النقوش اشتغل في حفرها الفنانون لمدة اربعين سنة .. » .

لم يعد قادراً على تحمل الأكاذيب ؛ انه متخم بها .. يكتشف فجأة انه امام حجارة وآثار من الماضي .. يغمض عينيه « لا يريد رؤية شيء من الماضي . ليذهب الماضي .. ليمت الماضي .. ليته يستطيع ان يرمي الحجارة ويهدم القلعة بأعمدتها ليبدأ الناس عهداً جديداً .. لتنته أكذوبة الماضي » ..

يحس بدوار .. يجلس على صخرة وأمامه يقف شاب وشابة يرسمان قلباً يخترقه سهم ثم يكتبان اسميهما فيه . « ليتهما لا يفعلان .. احدهما سيخون او ينسى .. قد تبدأ هي هذه الخطوة او يبدأها هو .. ولكنها آتية حتماً .. ستحفظ الحجارة صورة القلب يضم اسميهما ولكن قلبيهما سيمتلئان بأسماء جديدة ويفرغان من جديد » .. « اين اسمه واسمها ؟ كتباه يوماً على احدى حجارة قلعة بعلبك تماماً كما يفعل هذان المحبان . لقد كتباهما على صخرة ناتئة . الصخرة

امامه تشبهها كثيراً، ما عليه الا ان يخطو خطوة او خطوتين ليراهما .. او يمد رأسه قليلاً .. ينهض ويتقدم الى الصخرة، يتطلع الى القلب بالاسمين «كفاه هروباً» وعلى الصخرة الناتئة التي امامه رأى قلوباً كثيرة واسماء اكثر لم يكن بينهما قلباهما او اسماهما . على اليمين سجلٌ آخر للعواطف .. وهناك لم ير عهدهما، وفي كل لمحة ونظرة يرى احجاراً ناتئة هي تماماً صخرتهما ولكنها لا تحمل قلبهما . «لا يمكن ان يضيع القلب ويضيع الاسمان .. سيجدهما .. سيجده» وهرع الى هناك «انها هذه الصخرة .. لا انها تلك .. انها واحدة من هاته الحجارة الملآى .. ولكن بغير عاطفتهما» .

الشمس حارقة .. وقف يستريح في ظل عمود عال .. وعلى العمود يرى اطفالاً يتسلّقون اعلى مكان يمكن الوصول اليه .. أهلهم يلتقطون لهم صوراً ... «فوق الحجارة الخالدة يطلبون الخلود .. لا شيء خالد، كل شيء فان .. ستخلد الحجارة لانها خلقت ميتة .. الأطفال سيكبرون ويشيخون ثم يموتون .. الموت هو الحقيقة الوحيدة، هو الشيء الوحيد الخالد ..» حين يرى قافلة السياح عائدة ، يحس بالاطمئنان : «غرباء مثله» .

ينحشر فيهم .. يعود معهم الى السيارة .. يصلون منطقة رأس العين ينزلون ليتوزعوا على الموائد . المكان مملوء بجماعات تضحك وتمرح.. يجلس على مائدة وهو خجِلٌ من وحدته ..

الكل يتشاور مع اصحابه في نوعية الأكل وهو .. « يلعنها ويلعن نفسه .. يلعن زوجته . ليتها لم تخبره .. ليتها كذبت ولم تخبره عن خيانتها، ما كان سيدريه بالحقيقة؟ يقو لون الزوج آخر من يعلم .. ولكنه الآن يعلم، واصدقاوْه يعلمون انه يعلم . ما فائدة ان يتمنى لو لم يعلم . ليتها تركته يعيش في اكذوبة . كان يطلب منها معرفة كل خطوة تخطوها . يريدها ان تخبره عمن ترى ومن تحدّث . ليتها لم تخبره . ليته لم يعرف . لو جهل ما يعلمه الآن لعاش سعيداً بجهله . ليتها لم تكن صادقة صريحة . لمَ تختلف عن بقية النساء المخادعات؟ يمدحها ؟ لا .. لا انه لم يعد يحبها .. يريد التكفير عن وفاء الماضي . لقد خانته طوال الوقت وكذبت عليه كثيراً ولم تعترف بخيانتها الا بعد ان اصبح حديثها شائعاً بين الناس » .

أمامه جماعة حول مائدة . مصوّر يستعد لالتقاط صورة لهم . بين الجماعة شابة وشاب يتقارب رأساهما بوله . « اذن فالصورة لهما وبقية الحضور حواشٍ » .

الكل يرسم ابتسامة ويتخذ وضعاً يميّزه عن الآخرين . المصور يطلب من ضيفي الشرف تقريب الرأسين اكثر ورسم ابتسامة اوضح .

ينهمك المصور في تحميض وطبع الصورة . تخرج احدى الموجودات مرآتها تطمئن على المستقبل « في عيون ضيفي الشرف قلق » .

يمسك المصور بالصورة ويقارن بينها وبين جماعة المائدة . يحس كل فرد انه المعني بنظرة المقارنة ويسأل (كيف ابدو ؟) يأتي الناس ليشاركوا المصور دراسته وملاحظته . ترقب في عيون اصحاب الصورة وامل .

يقرر المصور ان يعيد التقاط الصورة . وفي عيني كل فرد ترتسم نظرة ثقة «كل يظن وجهه ناجحاً ووجوه الآخرين تحتاج إعادة تصوير » .

ظل ينقل نظراته بين افراد الصورة والمصور. ينتظر الصورة الثانية .

يتقدم المصور بنسخ منها اليهم . تمتد العيون المتلهفة . تعلو ضحكات وترتسم ابتسامات رضى وابتسامات خيبة .

يحس شفتيه تنبسطان .. ثم يعود لتقليصهما « ليس بين يديه صورة يتأملها » .

يعود المصور الى آلته .. تلتقي نظراتهما . يومىء اليه باشارة ايجاب .

صباح اليوم التالي . يضع الثقالة على الأوراق ويجلس الى طاولته يكتب طلباً لاجازة اعتيادية يستحقها .

ضَبَابٌ ...

لفّت المنديل الصوفي حول رأسها وربطته باحكام ليستطيع مقاومة الهواء، واسرعت في المشي تريد الوصول الى بيت صديقتها وعلى الاصح الى غرفتها .

كانت الشمس قد غابت منذ ساعات . فهي ، اذا بزغت ، تغيب مبكرة جداً في هذا البلد الغريب ، مع ان الساعة لم تكن قد تعدت السادسة مساء بكثير .

واحسّت الهواء يقرص وجهها فسحبت غطاء الرأس فوق جبينها وقرب وجنتيها وغطت به معظم وجهها . كان البرد لا يزال شديداً وموجة ضباب بدأت تتكاثف . وشعرت بوحشة . ليتها تصل سريعاً لتنسى البرد والظلام والوحشة .

كان الشارع مزدحماً بالمارة وقالت في نفسها : انهم متعودون على البرد وعلى الظلام المبكر . وهي .. ستتعود . يجب ان تنسى او تتناسى البرد والظلام والشعور بالوحشة، فعليها ان تمضي سنوات في هذا البلد قبل ان تعود الى الشمس

والدفء والاهل والطمأنينة .

نعم .. الشمس والدفء والاهل .. ولكن اتراها كانت طمأنينة ما احسّته ؟ لو كانت كذلك لما هربت منها وجاءت الى حيث تتحمل البرد والظلام والوحشة . لقد جاءت تبحث ايضاً عن الطمأنينة ولكن اتجدها ؟ .

لو كان الفرد يستطيع ان يسافر ويترك خلفه كل شيء .. لو يترك وراءه نفسه ، وما فائدة ان يسافر اذا حمل نفسه معه ؟ ما فائدة ان يهرب وما يخيفه ويفزعه معه ؟

وجاءت موجة هواء اطاحت بمنديل رأسها فرفعت رأسها تعيد احكام تغطيته ورأت موجة الضباب قد تكاثفت كثيراً ، وزادها هذا شعوراً بالضياع .. وسمعت سعال المارّين .. اذن ستعود موجة الضباب الشديد وستعود اخبار ضحاياه تحتل اعمدة الصفحة الاولى من الصحف .

في الاسبوع الماضي كان ضحايا الثلج هم ابطال الساعة وقبلها الجليد وقبلها المطر وهكذا لكل مناخ ضحاياه .. وبلادها .. بلاد الشمس والدفء ، اليس لها ضحايا ؟؟ الناس هناك يعيشون مع أهلهم وفي بيوتهم المدفأة بالشمس والحنان ، وهم يموتون في اليوم مرات ضحايا للشمس وضحايا للحنان وضحايا للاهل .

كان البرد يجمد أطراف أصابع يديها وقدميها ، فوضعت يديها في جيبي معطفها تبحث عن الدفء ، وتمنت لو تجد

مكاناً دافئاً تحشر فيه قدميها حين سمعت صوتاً يقول بانكليزية ركيكة : اتحبين مشاهدة فيلم سينمائي ؟ .

ولم تدر كيف خرجت منها كلمة لا .. قالتها بكل ما تستطيع ان تحمل الكلمة من غضب وكبرياء واعتزاز وقسوة . قالتها وهي تحس موجة غضب تصفعها واستمرت تمشي دون ان تدير وجهها لترى السائل . فعاد الصوت يسأل : ولم لا ؟ أدارت وجهها لترى رجلاً ضئيلاً اسمر يبتسم لها في استعطاف أبله . ولم تكلف نفسها هذه المرة جواباً وأسرعت تمشي تكاد تركض والغضب قد تمالك جوانب نفسها . من هذا الغبي الذي يظن ان دعوة من عابر طريق ستلقى رضى عندها ؟ كيف خيل له انها قد تلبي دعوته ؟ واحست بكرامتها وكبريائها يدفعانها الى العودة والتفتيش عنه في هذا الظلام والضباب والبرد .. تعـود لتفهمه من هي ومن اي بيت جاءت ومن في بلادها ممن يتمنون لو ردت لهم تحيتهم ، وتمنت لو تراه الآن وتسمع دعوته لتلقي عليه محاضرة عن بلادها والفتيات هناك وتربيتهن المحافظة ومكانتهن في المجتمع . ايظن ذاك الأبله انها ستركض اليه تشكره وترحب بدعوته دون تردد ؟ ليته يعود يعرض دعوته ثانية . ان كلمة « لا » مع كل ما حملتها من كبرياء وغضب واحتقار لم تكن كافية .

ولكن هل يوحي شكلها بأنها من الفتيات الرخيصات بحيث تقبل اية دعوة من اي عابر سبيل ؟

وتذكرت انها تغطي معظم وجهها ، فالغريب اذن لم يَدْعُهَا اذ اوحى له شكلها بالابتذال ولكنه اراد دعوة اية فتاة ما دامت ستخفف عنه وحشته . وزادها هذا حنقاً . اذن فقد تساوت مع بقية الفتيات ولم تعد لها اهمية خاصة كالتي تجدها في بلادها !! صدق من قال الغربة تضيع الأصل . الغربة تضيع الاصل .. لو حاولت ان تترجم هذا القول لاهل هذه البلاد ، ماذا سيفهمون منه ؟ ولو حاولت شرحه للغريب الذي دعاها ؟؟ الغريب !! الغريب ! انه ايضاً غريب .. غريب مثلها .. وقد ضيّع اصله كذلك حين تغرّب هنا .

وعادت صورة الشخص الاسمر النحيل بصوته المنسحق . لقد كان ضعيفاً وهزيلاً ومحزوناً وكان في صوته نبرة توسل مؤلمة وخاصة حين عاد يسأل ولم لا !

اتراه قصد استرخاصها حين دعاها ام انه ضحية اخرى من ضحايا الوحشة؟ قد يكون فكر طويلاً قبل ان يعرض هذه الدعوة وقد مرت به فتيات كثيرات حاول ان يعرض عليهن دعوته ولكن شجاعته خانته . وكان من نصيبها هي ان واتته الشجاعة . لمَ تغضب عليه هذا الغضب كله ؟ اما كفاه اللهجة القاسية التي لفظت بها كلمة لا ؟.

وتصورته امامها يمد يده يطلب معونة . لو طلب منها مساعدة مادية اما كانت تقدمها بكل رحابة صدر ؟

وهو الآن يحتاج رفقة فطلب صحبتها. لعله لم يكلم احداً منذ أيام.. وقد يكون آتياً من بيت مرتب وعائلة محافظة كعائلتها ولكنه انسان يشعر بالوحدة تماماً مثلما تحس هي. لقد تركت غرفتها الدافئة واسرعت في هذا البرد والضباب والظلام ساعية الى صديقتها تريد ان تزيل بالحديث اليها الخوف من الوحشة.

وهو، اليس انساناً من لحم ودم؟

ربما كان مرفهاً مدللاً في بيته. وتذكرت اخاها حين كان مسافراً وهلع امها عليه كلما فكرت انه بعيد عن الاهل والوطن والاحباب. كانت امها ترسل لاخيها معمولات بيتية وشرقية وتلح عليه ان يختلط بالناس وان يهدي اليهم ما ترسل له علّهم يخففون عنه بعض شعور الوحشة. وكانت امها ترسل خطابات شكر لكل الناس الذين يدعون ابنها لزيارتهم. وكانت تقول لها ولاخواتها: انتن لا تعرفن معنى ان يستقبل الغريبَ بيتٌ دافيء آهل بالناس.

وهي الآن تعرف ما معنى الوحدة، وما معنى الغربة والبرد. ما كان ضرها لو رفضت دعوة الشخص الغريب الاسمر الهزيل بصوت ليس فيه كل تلك القسوة؟ ماذا لو اتبعت كلمة لا بكلمة شكراً دون ان تحملها معنى الامتنان كما يستعملها الناس هنا؟؟ او حين يريدون التعبير بها عن شتيمة مؤدبة؟.

وتخيلته في بيته بين اهله وامه تحيطه بكل حنان ورعاية وتخشى ان تختطفه الفتيات منها .

ربما كان مترفعاً متكبراً في بلاده ولكن الغربة اذلته والوحدة انزلته عن كبريائه فجاء يستعطف المارين ويستجديهم كلاماً ! وهي .. لم تحس اي شيء من هذا . كان كل ما احسته الاهانة .. اهانة ان يتطاول هذا الغريب الألكن على عرض دعوته .

انه سيء الحظ هذا اليوم . فهنا عشرات من الفتيات يرحبن بأي دعوة من اي عابر سبيل . ولو كان قد عرض دعوته على واحدة منهن لكان الآن يجد اصغاء او يكون متأبطاً ذراعاً دافئة او قد يكون في بيت . ورفعت رأسها تفتش عنه بين المارّين فلم تر احداً وسمعت اصواتاً فقط . كان الضباب يتضاغط بشدة ، وميزت في الاصوات اصوات نساء ورجال . اذن فقد وجد البعض رفيقات ووجد بعضهن رفقاء . والغريب الاسمر النحيل ذو الصوت المنسحق هل وجد فتاة تصاحبه ؟ وتمنّت لو تراه بصحبة فتاة إذن لاحست براحة واطمئنان عليه .

وعبرها رجال يسيرون وحيدين وكذلك فتيات يسرن فرادى . الوحدة مرض هذا البلد . هناك وحيدون كثيرون غير الغريب الاسمر ذي الصوت المستعطف .

وخفف التفكير في العدد الكثير من الوحيدين شعورها

بالذنب .

وسارت تخترق سيطرة الضباب وحين حاولت ان تستبين معالم الطريق اكتشفت انها ضائعة لا تدري كيف تصل الى صديقتها . وقفت حائرة تحدق في الضباب فلم تر احداً ، واصاخت سمعها فلم تسمع صوتاً . الطريق خال وقد لا تجد بسهولة من يرشدها . ولم تدر اين هي ، فهي لا تستطيع حتى ان تعود الى بيتها . وبدأ قلبها يخفق بشدة . واحست بالاختناق وتمنّت لو تسمع صوت سعال او صوت اقدام او لو تسمع صوت دعوة من عابر طريق . طالما جاءت تزور صديقتها وكانت تظن ان قدميها تقودانها دون حاجة الى التفكير في تفرعات الشوارع . فكيف ضاعت الليلة ؟ وما الذي ضيعها ؟

اهو الضباب ؟ انه الضباب وشيء آخر . لقد انتقمت السماء للغريب الاسمر الهزيل ذي الصوت المستعطف بأن تركتها ضائعة تائهة لا تجد لها مخرجاً في هذا الضباب . رفعت رأسها تستجير بالسماء ، وصلّت لها وطلبت منها ان ترسل لها من تسأله عن الطريق ، واذا بها تختم صلاتها بالتعهد لله بأنها لن تكلم غريباً مستوحشاً بلهجة قاسية بعد الآن .

وحجب الضباب الكثيف وصول صلاتها الى السماء فوقفت تنتظر .. وطال انتظارها ففكرت بالعودة علّها تجد

معالم الطريق الى غرفتها بالقهقرى فلم تدر كيف تتجه، وخيل لها انهـا ستبقى تائهة الى الصبـاح، ثم قررت ان تستسلم للقدر لعـل الاستسلام له يرضيـه . ووقفت فـترة لا تدري طولها قبل ان تسمع صوت اقـدام . لم تسمح لنفسها بالفرح خوف ان يكون سمعها يخدعهـا ، ولكن الصوت المطمئن وضح. نعم انها صوت اقدام؛ وسحبت المنديل الصوفي عن رأسها تمتع اذنيها بصوت حركة بشرية ولم تفكر أول الأمر بالقادم. يكفي ان تجد انساناً تكلمه وتسأله عن الطريق فيدلها عليه. وحين اقتربت الاقدام احست بفرح وخوف معاً : فقد ميزت فيما رأت شبح شخص طويل القامة عريض الكتفين وتمنت لو كان شرطياً.. ولكن القادم لم يكن شرطياً. ومر بها دون ان يتوقف او يتكلم او ينظر اليها. وتطلعت اليه يبتعد عنها والخوف عاقد لسانها . وبجهد استطاعت ان تنطق وتناديه فعاد ووقف امامها يعرض عليها مساعدته. سألته عن شارع بيتها فأخبرها عن عدد الأمتار التي يجب ان تسيرها قبل ان تستدير الى اليمين ثم عدد المنعطفات التي يجب ان تترك قبل ان تستدير الى اليسار وختم كلامه معلقاً على الجو : انه ضباب كثيف .

وكانت لا تزال تتمتم بعد قائلة : نعم انه ضباب كثيف : حين سمعته يتمنى لها ليلة سعيدة .

فأجابته : نعم . انه ضباب كثيف .

صَلاة المائدة

نشأت هناء في بيت قال الكل عنه انه بيت سعيد. كان الجميع يحس بالسعادة التي تخيم على افراد الاسرة، فالوالد ذو مكانة محترمة وشخصيته محبوبة وميسور الحال. اما الأم فقد كانت في الحق هي السبب في اشاعة السعادة داخل البيت واذاعة اخبارها بين الناس. فهي من النوع المؤمن المعتمد على الله في كل شيء. وكان الله عند حسن ظنها فهو لم يخيب لها مطلباً، هي جميلة خفيفة الظل محبوبة، نشأت في بيت منحها كل اسباب السعادة. وحين انتقلت الى بيت زوجها، لم ينقصا من سعادتها شيء، وزاد عليها ان منحها الله اربعة اطفال، ثلاثة بنين وبنتاً واحدة، وكان هذا بالضبط العدد الذي طلبته والنوعية التي عينتها. وفي صباها كانت تعين الصفات التي تريدها في زوج المستقبل فأرسل لها الله زوجاً فيه كل ما طلبت من الصفات.

وكانت هناء صغرى اخوتها، تماماً كما طلبت الأم، اخذت عن امها جمال الوجه والقوام وعن ابيها ذكاءه الشديد.

وفي البيت السعيد ذاك عاشت عمة هناء . وكانت مثل اخيها ذكية وذات شخصية لطيفة محبوبة . احبت في صباها المبكر ابن عمها وبعد مرور ثلاث سنوات على اعلان خطبتهما تبين لها ان خطيبها لا يحبها ، وما خطبها الا بناء على رغبة ابيه . وعز عليها ان لا يكون مرغوباً في شخصها ففسخت الخطبة وانتظرت من يجيء اليها اعجابا بها ، وتأخر في أول الأمر مجيء ذاك المعجب ... ثم ... لم يأت قط .

وبالرغم من الظروف غير الرضية التي مرت عليها العمة فقد كان مظهرها يوحي بالسعادة والرضا . فهي تحب الجميع وخاصة اولاد اخيها وتعاملهم كأنهم اولادها ، وكانت الأم تخشى ان يفسد تدليل العمة الاولاد ثم تستدرك بأن الله سيلهم عمتهم كيف تتصرف واين تقف في دلالهم .

ولم يُسمع عن العمة انها شكت من امر او تذمرت من المساهمة في ادارة شؤون البيت ، وكانت الام تترك لها قسطاً كبيراً من هذه الامور على اعتبار ان المشاركة فيها تشعرها ان البيت بيتها والاولاد اولادها ولا تترك لها فراغاً كبيراً تفكر فيه بما ينغص حياتها . وكانت الام كلما فكرت في هذا شكرت الله اذ وجد حلاً لمشكلة العمة تنسيها فشلها في الحياة .

وعاش ساكنو البيت في وفاق تام ولم يستطع احد ان يكتشف ان كان سبب الوفاق هو تقوى زوجة الاخ ام

حلم اخت الزوج .

وفي هذا البيت نشأت هناء، وتتذكر أول ما تتذكر من مفروشات البيت قطعة معلقة على الحائط طرزتها امها مكتوب عليها « الله محبة » وضعت هذه العبارة داخل عدد من اكاليل الزهر والحمام الابيض والملائكة المرفرفة بأجنحتها، وكانت تسمع امها تردد دائماً آيات من الكتب المقدسة تدور كلها حول محبة الله لابنائه وعن رحمته ومغفرته للخطاة التائبين . وكان هذا الكلام يتلاءم تماماً وشخصية الأم .

وتحدث الناس عن تقى وورع الام الشابة التي لم تترك مناسبة للصلاة الا وقامت بها ولم يمر عليها موسم من مواسم توزيع الصدقات الا وادته بسخاء .

وكلما ذكرت سعادة الأم اقترن الحديث بتقواها وتدينها . ولا تذكر هناء ان امها طلبت شيئاً من الله الا واستجاب طلبها حالاً . كأنما هناك من يسجل طلباتها لينقلها له رأساً .

ومرت ايام الطفولة بهناء هنيئة سعيدة . كانت مدللة مرفهة في البيت وكذلك في المدرسة . وحين كانت امها تمنع عنها اي مطلب تجده عند عمتها، وهكذا لم تحس اي معنى من معاني الحرمان . وكانت تحسب ان كل الاسر تتكون من أب وام وعمة واخوان . وحين سألت بعض صديقاتها في المدرسة عن عماتهن اجاب البعض ان لعماتهن بيوتاً خاصة وللبعض منهن اولاداً ...

واستغربت هناء معنى ان يكون هناك اولاد عمة . وجاءت الى عمتها تسألها :

– اين اولادك يا عمّتي ؟

فابتسمت العمة وقالت :

– انت واخوتك اولادي .

– ولكننا اولاد امي وابي !

– وهذا ايضاً صحيح .

وذهبت هناء الى امها تطلب منها توضيح ما التبس في ذهنها فأنّبتها امها على سؤالها وحذرتها من توجيه مثل هذه الاسئلة لعمتها . وختمت حديثها بقولها :

– عمتكم تحبكم كأولادها .

وحين سألت هناء : ولكن لمَ ليس لعمّتي اولاد حقيقيون ؟!

كان جواب الام : لأن الله لم يرد هذا .

وفي يوم دخلت هناء غرفة عمتها فرأتها تبكي ، ولما سألتها عن سبب بكائها نفت العمة ان تكون تلك دموع بكاء ، وادّعت ان شائبة دخلت عينها فأدمعتها . اقتنعت هناء بقولها ولكنها عادت فترددت في تصديق كلامها حين راجعت مع نفسها منظر عمتها والدموع تهبط من عينيها الاثنتين . فالشائبة تدخل عيناً واحدة عادة . عادت الى عمتها تسألها :

ـ هل انت سعيدة يا عمّتي ؟

اجابتها : ـ سعيدة جداً يا عزيزتي ..

ولكنها احست بنبرة عدم صدق في صوت عمتها فهرعت الى امها تسألها : ـ

ـ هل كل الناس سعداء يا امي ؟

وكان رد الأم : ـ نعم اذا اقتنعوا بما اعطاهم الله .

وحين حل موعد صلاة المائدة واغمض الكل عيونهم يصلّون، فتحت هناء عينيها واسترقت النظر الى عمتها فرأتها غير مغمضة العينين . وكأنها لا تصغي للصلاة .

ومنذ ذلك اليوم بدأت هناء تتجسس ببراءة على عمتها، واكتشفت انها لا تصلي كما تفعل امها ولا تردد آيات من الكتب المقدسة ، فسألتها يوماً :

ـ هل تحبين الله يا عمّتي ؟

اجابت : طبعاً احبه . لم هذا السؤال ؟

سكتت هناء وان كانت تشك كثيراً في صحة كلام عمتها وذهبت الى امها تسألها ان كان كل الناس يحبون الله : فأجابت الام : « يجب ان يحبه الجميع » .

ولم تر هناء في جواب امها رداً على سؤالها .

وزاد هذا التجسس تقرّب هناء من عمتها فأصبحت

ملازمة لها كظلها ، وامعاناً في التجسس نقلت فراشها الى غرفة العمة . واحبت العمة هذا التقرب فدللتها اكثر من اخوتها مع انها لم تقصر يوماً في اظهار حبها الشديد للآخرين .

وهكذا اصبحت هناء المفضلة عند عمتها . وبدأت العمة تمضي الساعات تحادث هناء عن ذكريات صباها وطفولتها كأنما تستسرها وفرحت هناء لهذا الاستخلاص . وحين كانت تجلس بجوار امها كانت هذه تروي لها قصصاً عن اطفال لقوا حياة رغدة هنيئة لأنهم احبوا الله وكانوا صادقين وكانوا يهتمون بالآخرين . ارادت ان تخبر امها ان عمتها لا تروي لها قصصاً كهذه ولكنها لم تفعل اذ تذكرت انها محط ثقة العمة ، وعيب عليها ان تخون هذه الثقة .

وفي نفس الليلة عندما دخلت فراشها تنام سألت عمتها :ـ

ــ لم لا تروين لي قصصاً عن الله يا عمّتي ؟

ــ اكتفي بما ترويه لك امك .

ــ وما يمنعك انت ايضاً من رواية هذه القصص ؟

ــ لان امك تعرف الله اكثر مما اعرفه انا .

واسترخت هناء في فراشها ثم قفزت فجأة لتسأل :

ــ ولكن اين تعرّفت امي على الله يا عمّتي ؟؟

ــ هنا في هذا البيت، ولكن ليس في هذه الغرفة .

ــ لم لا يأتي الله الى هذه الغرفة ؟ اتراه لا يريد ان يراني ؟

ـ لا يا عزيزتي .. انا ارجو من الصميم ان يراك ويتعرف اليك جيداً . انه لا يريد ان يراني انا. لقد قرر هذا منذ زمن بعيد .

ونامت هناء قبل أن تجد وقتاً تفكر فيه فيما قالت عمتها عن الله .

*

وكبرت هناء ودخلت الجامعة وصار لها شؤونها ومشاغلها الخاصة التي انشغلت بها عن احاديث عمتها ونسيت قصة تجسسها واهتمامها السابق بها .

وابعدها هذا عن عمتها فلم تجد وقتاً للاصغاء الى حديثها والى سرد ذكرياتها .

وصارت كلما رأتها تريد مد حديث معها حاولت الاعتذار بانشغالها بالدروس . ويوم اخبرت عمتها انها صارت في حاجة الى غرفة مستقلة ، اجابت العمة :

ـ طبعاً طبعاً يا عزيزتي ... ولكن هناء احست بنبرة ألم في صوتها انزعجت منها .

ومرت الايام تقطع ما بين هناء وعمتها ولم تجد هناء وقتاً تتحسس فيه هذا التباعد .

ثم استيقظ أفراد الاسرة ذات صباح ليجدوا ان العمة تأخرت على غير عادتها في النوم، وحين هرعوا الى غرفتها

وجدوها تشكو ألماً في خاصرتها لازمت على اثره الفراش اسابيع وتوفيت في الاسبوع الخامس ...

وكثر الحديث عن العمة في الفترة التي اعقبت وفاتها وعرفت هناء منه مأساة حب وكبرياء عمتها. تألم الجميع للوفاة ولكن ألم هناء كان الاعمق، انها تعرف عمتها اكثر مما يعرفها اي فرد من افراد الاسرة.

وبدأت هناء تستعيد ذكرياتها مع عمتها .. يوم بدأت تتجسس عليها، واسئلتها الساذجة، واجوبة العمة العميقة. و حاولت ان تتذكر نص الاجوبة حين كانت تسألها عن الله وعن السعادة وعن اولادها غير الموجودين.

وتذكرت قول امها (الكل سعداء، اذا قنعوا بما منحهم الله) هل لامها فضل اذا قنعت بما اعطاها الله؟

وفهمت الآن معنى قول عمتها «ان الله لا يريد ان يراني». وادركت هناء مقدار الألم الذي كانت تعيشه عمتها واحست بضميرها يؤنبها. انها لم تعمل على اسعاد عمتها ابداً. كانت تمطرها بالاسئلة المؤلمة فقط. وما كان تقربها منها الا رغبة في التجسس عليها. وكذلك حين انتقلت بفراشها الى غرفتها.

هي لم تحاول ان تقدم لها هدية في يوم. ولم تفكر في اخذها معها الى احد اماكن اللهو الكثيرة التي تذهب اليها. بل انها لم تعتن بها عناية كافية فترة مرضها.

وآلمها كثيراً ان تسمع المعزين ينسبون لوالديها سبب الصفاء الذي عاشته الاسرة مع العمة. وسمعت يوماً واحدة من المعزيات تقول لامها :

– لقد عاشت المرحومة حياة سعيدة معكم. استمتعت بوجود بيت واولاد لها دون ان تتعب في تحمل مسؤولية البيت وولادة الاطفال وتربيتهم.

فصرخت هناء في وجهها : – انتم منافقون. كلكم منافقون حين تدرون ان عمتي عاشت حياة غير سعيدة تعبت فيها بتربيتنا دون ان يكون لها الحق في ان نكون اولادها وتحملت مسؤولية البيت دون ان يكون بيتها. تعرفون كل هذا وتزعمون العكس ارضاء للاحياء.

ومنذ ذلك اليوم احست هناء بواجب كبير عليها نحو عمتها. يجب ان تعمل شيئاً يريحها لو كانت لا تزال موجودة... ولكنها لم تدر ما يجب عمله. اتخاطبها لتقول لها انك امي الحقيقية وانا ابنتك؟

ولكن انى لها ان توصل هذا الصوت اليها؟؟ وعادت تجلس ساعات في غرفة العمة كأنما تصغي لاحاديثها وتبتسم بين فترة واخرى كأنها تؤيد صحة ما تسمع...

وجاء مساء وجلست الاسرة حول المائدة وبدأت الصلاة. وشردت هناء بأفكارها الى يوم فتحت فيه عينيها تسترق النظر الى عمتها فرأتها غير مصغية للصلاة. ليتها فهمت يومذاك

ما تفهمه الآن .. كيف تعرف عمتها ما تحسّ الآن ؟ كيف تخبرها انها متألمة لتصرفاتها وخجلة من نفسها وانها الآن مع كونها قد ذهبت بعيداً فهي اقرب اليها من الاحياء القريبين.؟ كيف ؟... وسمع افراد الاسرة هناء تجهش بالبكاء وهي تقول :

– : لن اصلي معكم بعد الآن .. ولن اصلي قبل النوم . ولن اذهب معكم غداً للصلاة .. لن اصلي لله ... لن اصلي له ، وفاء لعمتي : لانه لم يزر غرفتها ابداً .

مشیئۃ اللہ

سأقدم استقالتي . سأكتبها ساعة وصولي . سأتحدث عن كل شيء . أشرح عن اعمالي وتضحياتي والارهاق الذي يمهر دائماً بتوقيع المدير الكريم .. لقد تعبت ..

قالت زوجته : « ماذا لو قبلت استقالتك دون نقاش ؟.

ــ سأنشرها في الصحف وافضح مخازي كل من عرفت.

ــ اين تجد الصحيفة التي تنشر كتاب الاستقالة هذا ؟

ــ سأجد صحيفة حرة نزيهة .

ــ كم ستدفع للصحيفة الحرة النزيهة ومن سيتوسط بينكما ؟

ــ مالك تحدثيني وكأن الدنيا قد فرغت ! !

ــ الدنيا ملأى .. ملأى بالذين ينشرون لك كتاب الاستقالة ويقرأون .. ولا يعيرونه اي اهتمام .

صفق الباب خلفه « سيقول لي المدير نحن نحترم اتعابك

ونكن لك احتراماً واعجاباً كبيراً. نقدر فيك عدم اهتمامك بالمادة. فالتقدير المعنوي هو اسمي درجات الاعجاب».

«تعبت من العواطف. أرهقت من المديح. أريد اعجاباً غير عاطفي، أريد مديحاً عملياً، سأقدم استقالتي. تعبت من كوني جندياً مجهولاً، اريد ان تعلق الاوسمة، كل الاوسمة على صدري وكتفي، وعلى ظهري. ان تنصب اقواس النصر لاجلي ويهتف الناس بحياتي. هؤلاء الابطال المملوءة الصحف بأسمائهم ليسوا اكثر بطولة مني. لم يضحوا اكثر مما فعلت. ليسوا جنوداً مجهولين».

لم يسلم على الحاجب. حين دخل المكتب حيا زملاءه بفتور. جلس باسترخاء على كرسيه «يجب ان يحس زملاؤه» انهم سيسألونه عما به. فيجيب باعتزاز: سأستقيل واحافظ على كرامتي ولو مت انا وزوجتي جوعاً.

لم ينتبه احد لفكيه العصبيتين. رفع ساقيه. مدّهما على الطاولة، فلم يسأله احد عما به. اغمض عينيه «سيسألونه ان كان متعباً» وطالت اغماضته. ولم يوجه اليه السؤال. فتحهما، رأى مغلفاً كبيراً اسمر اللون وعليه اسمه.

«عمل جديد... عمل جديد، عهد به اليه قبل ان يصل وقبل ان يستشار فيه وقبل ان ينهي اعمال الامس. سيقولون له نحن نقدر اتعابك ونعتز بالمخلصين امثالك» «المخلصين امثالي! الاغبياء! الاغبياء امثالي».

كان هذا نص كتاب المغلف الاسمر الطويل .

« بعد الاتكال على الله وتنفيذ لسياسة التقشف التي تنتهجها الدولة رأينا انقاص عدد الموظفين ، وكانت مشيئة الله ان تكونوا من بين الذين تقرر الاستغناء عن خدماتهم » .

وكان في الكتاب قائمة اسماء وتحتها مهر المدير وسهم احمر صغير يشير الى احد الاسماء فوصل به الى اسمه هو .

احس بعينيه تجحظان . نكس رأسه يغطي احتقان وجهه . وجاءه سؤال سريع من زميل :

– ما بك ، هل انت مريض ؟

– انا ... انا متألم .. متألم جداً .. للاقلية العربية ، انها تلاقي تعذيباً من زنجبار ، كيف يعذبونهم بهذه القسوة ؟.

عاد الزميل الى عمله وهو يقول بكل برودة اعصاب :

« انت ؟ وانا ؟ ألسنا في بلادنا ! ألست انا متعباً ؟ هل انت مرتاح ؟

– نعم كلنا متعبون . ليتني استطيع الابتعاد عن مشاكل العالم العربي ومشاكل البيت والعمل . انا متعب من كل شيء .

– لو كنت مرتاحاً من جانب لما شكوت من الآخرين . اشتغل يا صديقي ، اشتغل ، كلنا متعبون والعمل الكثير هو المتنفس الوحيد .

وعاد الى العمل ، امر الاستغناء عن خدماته يعيّن الموعد ببعد ظهر ذاك اليوم. لقد حددوا له بالضبط متى يجب ان يترك العمل وكيف يجب ان ينهي اعماله قبل وجوب تلبية امر الفصل .

« اريد الصعود الى اعلى مكان في المدينة . الى اعلى بناية فيها . الى اعلى عمود . اتسلق اعلى صارية ومن هناك .. من هناك .. ابصق » ..

« ستذرو الرياح بصقتي وتضيع كما ضاعت جهودي طوال هذه السنين » .

« ليت الحياة خد اصفعه . ليت الحياة خدّ اصفعه .. اصفعه .. »

وتسأل زوجته من هذا الذي تريد ان تصفعه ؟

« انه شقيق المدير ... تصوري ان يحدثني البارحة عن نزاهة اخيه وصراحته وتضحياته في سبيل مثله العليا . يتمنى له لو يتلوّن .. لو ينافق بينما كنت انتظر انا من كل عهد جديد ان يعاقب تزلفه .. ان يؤدب قلة وفائه ... الا يستحق صفعة على قوله هذا ؟.

« اذا اردت ان تعاقب فعاقب الجاني الحقيقي . يكفينا ما نلاقي في الحياة من ضربات عشواء .

– وصديقنا الرسام الأب والزوج الضائع الذي ترك

بيته ليلحق غانية تبيعه في اليوم عشرين مرة . الا يستحق صفعة ترجعه عن غيه ؟.

ـ اتركه .. مسكين انت نفسك قلت عنه انه ضائع . ولكن الا تراه جريئاً عنده الشجاعة الكافية ليعلن عن ضياعه .. كم في الحياة ضائعون يقتلهم القلق .. خوف اكتشاف ضياعهم .. هل لك ان تنتقل الى الكرسي التالي لأمسح الأرض هنا ؟.

كانت زوجته تمسح الأرض . تزيل بخرقة مبتلة ما عليها من اوساخ .. تمد الخرقة وبسحبة بسيطة تحول الأرض الى قطعة لماعة نظيفة . «كيف نستطيع تنظيف النفوس ؟ » .

ـ مالها النفوس ؟

ـ امر جارتنا غريب .. الا تدري انها مسنّة وقبيحة ولا يمكن ان تثير اعجاب رجل، ومع ذلك تتعلق بكل شاب تصادفه .. انها تستحق صفعة وبصقة معها ؟.

ـ لو انصاعت لنصائحك من تراه سيخفف عنها الوحشة والشعور بالوحدة ؟ انت ام صفعتك . ام تراها بصقتك ؟ ساعدني على تحريك هذا الكرسي .

يسند رأسه الى زجاج النافذة . يلمح امرأة مرتدية ثياب البحر ، مستلقية على الشرفة تأخذ حماماً شمسياً وبجوارها رجل يأخذ هو الآخر حماماً شمسياً .

يفتح النافذة يتأملهما ثم يحس بكل نخوة الرجولة تثور فيه ، وبين صراخة المنادي بالعودة الى الفضيلة وصيانة الشرف يسمع زوجته «اذا كان المنظر قد خدش نظرك فلم فتحت النافذة ؟ انها جديدة في هذه الجيرة . انتقلت منذ ايام من حي آخر لا يرى في حمامها الشمسي مساساً بالفضيلة. المسألة موضوع مقاييس نسبية .. كنت انتظر منك ان تفكر في عقاب من يتأخر عن عصره لا في من يسبقه ..»

ويمد رأسه من الشباك يغطي اذنيه بضجيج الشارع . كان هناك عشرات من المارة تطلع اليهم وتمنى لو كان واحداً منهم ؛ اي واحد ، اي واحد لم يفصل من عمله اليوم .. اي واحد ليس نادماً على اخلاصه الغبي .. اي واحد يرسل كفه تصفع خداً تستحق الضرب .. اي واحد شجاعاً يبوح بتفاصيل يومه هذا ..

يصطدم بقدمه دلو الماء .. تسمّر في مكانه يتطلع اليه وطبقة من الاوساخ تعلوه . وبكل شجاعة رفع الدلو وسكبه من الشباك .

حين سمع صوت أحـــد المارين يعلو شاتماً لاعناً مهدداً متوعداً ، صرخ هو بشماتة يائسه :

« لا تلمني انها مشيئة الله . هذه مشيئة الله » .

شيء جديد

نظرت الى ساعتها ، وكانت تشير الى الثامنة الا ثلثاً ، ستنتظر خمس دقائق قبل ان تترك البيت ، فموعد خروجها اليومي هو الثامنة الا ربعاً . وحين تصل مدرستها في الثامنة ستدخل غرفة المدرسات وتتطلع الى المرآة الكبيرة المعلقة عند مدخل الغرفة ، ستنظر فيها وترى شعرها في حاجة الى تمشيط ، وحين تنتهي من تمشيطه ستقول : ان شعري لا يريد ان يترتب اليوم . وسترد بقية المدرسات : انه مرتب كالعادة . هي تدري أنها كذبت حين قالت انه غير مرتب ، وانهن كذبن حين قلن انه مرتب كالعادة .

سيدق جرس المدرسة في الثامنة وخمس دقائق وسيصطف التلاميذ الصغار ينشدون نشيداً حماسياً ويزعقون بأقصى ما يستطيعون ليدلوا على انهم مواطنون صالحون وعمر كبيرهم لا يتجاوز السنوات العشر .

وفي الثامنة وعشر دقائق سيدخل الصغار صفوفهم الأربعة وتلحق بهم المدرسات ، وصفّها هي كالعادة هو الاول

الابتدائي ، فقد اختارت ذاك الصف حين كانت بعد تلميذة في الصف المنتهي من دار المعلمات ، وكان عليها كزميلاتها الاخريات ان تقضي فترة شهر في التدريس تطبق فيه النظريات التربوية التي درستها . واختارت الصف الاول لا لانها تحب الصغار ولكنها اعتقدت ان الصغار لا يحتاجون كبير إجهاد لضبطهم . واجادت التدريس وحصلت على اعلى معدل في درس التطبيق .

ولا تزال تذكر تماماً يوم دخل صفها مدرس التربية ليشاهد تدريسها . لم ترتبك يومها ، فقد كان عندها ثقة في نفسها كبيرة ، واستمرت في التدريس وعيون الصغار معلقة بها ، تتلفت كيفما تلفتت هي ، وترتفع اذا رفعت هي يدها ، وتهبط اذا انزلتها . لقد استطاعت ان تستملك قلوب تلاميذها واعجب استاذها بمقدرتها السريعة تلك على ترغيبهم في الدرس فلم تره الا وهو يمد يده يصافحها ، وصفق الصغار ، فقد عرفوا ان مدرستهم الجديدة نالت رضى استاذها . لم تدر يومئذ كيف احسوا بكل هذا ، فقد كانت تظنهم يجهلون انها تلميذة مثلهم وان هناك من سيحاسبها على تدريسها . ولكن يظهر ان هذا الجيل من النشء الجديد تفتح كثيراً . كانت تسمي ذاك الجيل جيلاً جديداً ، ما تراها تسميه الآن وقد مر على تخرجه من المدرسة ثلاثون سنة بالتمام ؟ وتتذكر ولا تريد ان تنسى كيف ان ذاك الصف بكى حين انتهى الشهر وعادت الى مدرستها تلميذة .

لقد احبها الصغار وفضلوها على مدرستهم الاصلية وقرروا ان يهدوها شيئاً يعبر لها عن محبتهم ، فكان ان اهدوها دفتراً لحفظ الصور صدّروه بصورة لها مع تلاميذ الصف . واصبح معتاداً لديها بعد ذاك ان تلتقط مع كل صف ينتقل من السنة الاولى الى الثانية صورة تلصقها على الصفحة التالية من الدفتر .

وتجمّع لديها بعد ثلاثين سنة عدد من الدفاتر . وطالما تصفحت ما تضمه هذه الدفاتر من صور ، كم ضحكت وهي تتأمل صوراً لبعض الاطفال وقد اصبحوا الآن رجالاً ونساء اكثرهم متزوج ومنهم من زوّج اولاده . ولكنها كانت لا تضحك ابداً حين تنتقل بين صورها هي من صفحة الى صفحة .. لو قال لها احد ان شكلها سيتغير هكذا ، اتراها كانت تصدقه ؟ اكانت تصدق ان ذاك القوام والوجه المتفائل الضاحك سيصبحان على ما هما عليه الآن ؟ يا لفعل الزمن ؟؟ وامانيها وطموحها وترحيبها بالحياة ؟ هذا الذي لم تسجل الصور ما طرأ عليه من تغيير وتبديل ، اتراها كانت تصدق ان يوماً سيأتي تعيش فيه لأجل تلاميذها ولأجلهم فقط ، اتنسى نفسها تماماً لانها تريد ان تنساها ؟ وما فائدة ان تتذكر حياة تتعاقب فيها الأيام ، وكأنها يوم واحد يتكرر ؟.

كانت تظن ان الحياة تنتظر يوم تخرجها من المدرسة

لتفتح لها ذراعيها تستقبلها ، وها قد مر ثلاثون سنة ولم تفتح الحياة ذراعيها ، وكذلك لم يفعل احد من الناس .

وتطلعت الى ساعتها ، انها الثامنة الا عشر دقائق ، لقد اضاع التفكير في هذه الذكريات خمس دقائق من برنامجها اليومي ... ستتأخر وعليها ان تسرع .. ولكن لا لا بأس ، فهذا شيء جديد ، وهي لم تمر على جديد منذ سنوات ..

منذ ان اكتشفت انها تسير الى البدانة وفكرت ان تنقص من كمية الأكل او تغير نوعه لتخفيف وزنها ، جربت ذلك لمدة اسبوع فأحست بأنها فقدت شيئاً مهماً من اللذة وعلى الاصح فقدت اللذة الوحيدة المتبقية لها . فقررت ان تعود الى برنامج الأكل السابق وتلجأ الى المشي الى المدرسة يومياً بدل ركوب السيارة .

وجدت في هذا القرار متعة ، فالسير ينشطها ويزيل كثيراً من همومها التي اعتادت ان تتجمع لديها فترة الصباح .

وفي طريقها اليومي الى المدرسة ومنها تعرفت على عدد من الاصدقاء والصديقات كما احبت هي ان تسميهم ، مع انها لم تكلم احداً منهم . كانت تدري متى ستلقى هذا الصديق واين ستلقى تلك . كان البعض منهم دقيقاً في موعد مروره بحيث تضبط ساعة يدها على لحظة رؤيته .

ولا تزال تتذكر انها كانت تمر بفتاة كل يوم في الثامنة

الا خمس دقائق تقريباً في منعطف الطريق ، ثم غابت تلك الفتاة سبعة ايام . احست يومها انها قلقة لغياب تلك الصديقة ، وكم تمنت لو تعرف اسمها او بيتها لتسأل عنها ، ولكن الفتاة عادت الى الظهور في اليوم الثامن ترتدي السواد . ارادت يومئذ ان توقفها لتعزيها وتطيّب خاطرها ولكنها لم تفعل ، فكم من الامور فكرت فيها وصممت على القيام بها ، ثم اكتفت بها لنفسها . فكرت اليوم في تلك الصديقة ، لقد غابت نهائياً عن ناظرها بعد بضعة اشهر من حادث ارتدائها ثياب الحداد . اين تراها اليوم؟ لا شك ان ثوبها قد ابيض ولكن قلبها ... ترى ما لونه؟ اتراه قد ابيض هو الآخر ام ان الذي فقدته كان عزيزاً كثيراً ترك قلبها اسود مدى الحياة؟ .

وفي طريقها كانت تمر على بيوت ومتاجر . تتطلع الى بعضهاباعجاب ، فبعض البيوت تضم ساكنين سعداء. كان يوحي لها بذلك جدار البيت المرتفع المغطى بالنباتات المتسلقة ، اذ يخيل لها ان اصحاب ذاك البيت علّوا جدار حديقتهم لأنهم مستغنون عن العالم الخارجي ، انهم مكتفون بالبيت وبمن فيه .

وكانت ترثي لسكان البيت ذي الشرفات الظاهرة المنفتحة على الطريق ، ان سكان ذاك البيت يبحثون عن السعادة في الخارج ، في الطريق : وبيتها ! ترى ما يقول الناس

عن سكانه حين يمرون به؟ لقد حاولت ان تحافظ على نظافة زجاج النوافذ وعلقت ستائر زاهية الألوان تركتها مسدلة اكثر الاوقات . كانت تحسب ان هـذه بعض مظاهر البيت السعيد ففعلتها ما دامت لا تستطيع ان تبني سوراً عالياً حول بيتها وتجعل الزهور المتسلقة تملأه وتغطيه .

ومرت ثلاثون سنة ، الجديد الوحيد الذي حدث خلالها هو تراكم السنين . حتى اسماء تلاميذها كانت تتكرر كثيراً وهم كلهم في السابعة من عمرهم فهذه هي سن طلاب الصف الأول الابتدائي . طلبت مرة من مديرة المدرسة ان تجعلها تدرّس غير الصف الأول ولكن طلبها رفض بحجة انها تجيد التدريس فيه اجادة سجلها لها المفتشون والمديرات . وكم تمنت ان لا يثنى على تدريسها ليكون هناك جديد في حياتها .

كانت تنتظر يوماً يقال لها فيه انها مدرسة فاشلة ولكن ذاك اليوم لم يأت . انها ناجحة في العطاء ، فاشلة في الاخذ .

كان هذا هو محور تفكيرها اليومي . ليتها تجد شيئاً جديداً تفكر فيه . انها تدري حين تبدأ التفكير اين ستصل واين ستقف .

وحين وصلت المدرسة ودخلت غرفة المدرسات تعمدت ان لا تنظر في المرآة ولكن لم تقل لها واحدة من المدرسات ان شعرها مرتب فاستفقدت هذا المديح الكاذب .

دق الجرس واصطف الصغار وبدأوا يزعقون منشدين ثم دخلوا صفوفهم . وخرجت من غرفة المدرسات لتلحق بتلاميذها ، وفي طريق خروجها تطلعت الى المرآة فرأت شعرهامرتباً . ليتها قالت ان شعرها لا يريد ان يترتب .

دخلت الصف واندمجت في التدريس ، وبينما هي تكرر بعض أصوات الحروف سمعت الطفل الجالس على الطاولة الامامية يتلعثم في ترديد الصوت . نظرت اليه ، ان سنه الامامية مكسورة . لقد حدث جديد !! وتطلعت الى من يجاوره فاذا سنه العليا مفقودة ايضاً ! وأدارت رأسها بين الأطفال ..

هذا ثالث ينقص فمه سن وذاك رابع وخامس ..

وتطلعت في وجوه الصغار واذا كل منهم ينقص فمه سن . اهذا جديد ؟؟ اهو جديد ؟؟

ثم تذكرت فجأة انهم في السنة السابعة من عمرهم في السن التي يبدل فيه الصغار اسنانهم ..

هذا امر يحدث لكل تلاميذها منذ ثلاثين سنة .. ولكنها اكتشفته اليوم فقط .

ولكن . اليس جديداً ان تكتشف هذا القديم ؟ .

قَرْعُ الطُّبُول

سمعت صوت المفتاح يدور في الباب ، وصوته ينبح ووقع الاقدام ، والسعلة القصيرة ، وانتظرت ، لم تدر رأسها . فهي تدري ان كفين ستغطيان عينيها ولفح انفاس حبيبة سيهب على شعرها واذنيها ، وصوته سيسأل : من انا ؟ انه يفعل هذا ، كلما احست انه قد اساء اليها ، بطريقة ما . هي لا تدري ما تفاصيل تلك الاساءة . قد تكون اهمالاً ، او خيانة ! لم تستطع ان تتأكد قط من صحة هواجسها هذه ، ولكن قلبها كان ينبئها ، وكانت هي دائماً تصدق انباءه ، وتحيك في ذهنها الحديث الذي ستجابه به زوجها ، لتفاجئه بانها تعرف كل شيء ، ولكنها لا تريد ان تعاتب . فقلبها كبير ويتسع لغفران ، ومحبة ، وعطاء لا يستطيع هو تصورها .

اقتربت الاقدام منها ، ولكن الكفّين لم تغطيا عينيها . وسمعت زوجها يقول : ماذا ؟. الم تسمعيني آتياً ؟ الست مشتاقة الي ؟ اذا لم تكوني ، فانا كذلك . وامسك وجهها

بكلتا يديه يتأمله ، وقال بحنان : ليتني اعرف تماماً ، ما يخبئه هذا الرأس العزيز من مشاريع . فأجابته : مهما كانت أنواع مشاريعه ، فهي لن تكون يوماً ، في غير صالحك . وانتظرت ان يقول : وهل يخبىء رأسي لك مشاريع في غير صالحك ؟ لتجد باباً تفتح به الحديث ، الذي طالما اسكتته . ولكن لم يقل ذلك ، بل ضحك ضحكة كلها براءة وحنان وقال : وهل اشك في هذا يا عزيزتي ؟ يكفي ان اقيس ما في نفسك من خير لي ، بما احسه نحوك ، ان هذا لدليل كاف .

وسكتت . لم تسأله لماذا تأخر ، واين كان . وحين نظرت الى ساعتها ، تعمدت ان تبدو نظرتها وكأنها نظرة عابرة الى يسارها .. كان قد مر على موعد اقفال المكتب ساعتان وثلث . ولكنه لم يفكر في شرح اسباب تأخره ، وكبر عليها ان تسأله هي عن ذلك .

حدثها عما جرى في المكتب من امور صغيرة ، وكبيرة ، فقد كانت هذه عادته . وحدثته هي عما مر عليها من احداث اليوم . وبينما هما يتحادثان ، وقد انزاحت بعض غيوم الشك من نفسها ، مد يده ، وفلك شعرها المعقوص فوق رأسها ، وترك الشعر الاسود الفاحم ، ينساب على كتفيها ، وظهرها ، ويكاد يصل الى خصرها ، ووقف يتأملها اعجاباً وقال : لا ادري لم تصرين على اخفاء جمال شعرك ، برفعه ولفه ؟

ـ ولكنك كنت تحب ذلك دائماً .

واحست نظرة ارتباك خفيفة عبرت عينيه : نعم انا احبه كذلك ، ولكني اليوم فكرت ، كيف تبدين لو كان شعرك مسدلاً ؟

ـ انه طويل لا يمكن تركه مسدلاً .

ـ وماذا لو قصصت قسماً منه ؟. (وامسك بشعرها يطويه الى الداخل عند الكتفين) انك ستبدين اصغر من عمرك ، لو فعلت هذا .

ـ وهل ابدو كبيرة هكذا ؟

ـ لا .. لا لم اقصد ذلك . ولكني اريد الاستمتاع بنعومة شعرك ، ولمسه ، وهذا ما لا استطيعه وهو معقوص .

كانت هذه اول مرة ، يعيب فيها نوعية تسريحة الشعر ، التي طالما ابدى اعجابه بها . وكذلك كانت اول مرة يلمح لها ، انها تبدو كبيرة .

اتراه يفكر في غيرها ؟ في من هن اصغر منها ، وشعرهن مسدل ؟؟

وعادت طبول الشك تقرع ، تنذرها . انه يهتم بغيرها . ولكن كيف لها ان تجد ذلك الدليل ، وكل تصرفاته ، دليل صادق على حبه العميق ؟ ايمكن ان يكون ممثلاً بارعاً ، يستغفلها ، وهي كالبلهاء لا تحس ولا تدري ؟

وحلمت ليلتها ، انها ترى زوجها يداعب شابة صغيرة ، شعرها اشقر يصل الى كتفيها ، ويهمس في اذنها « ما دمنا بعيدين عن زوجتي ، فسأمتع يدي ، وعيني ، بشعرك الحريري الاشقر » .

استيقظت صباحاً ، واثر الحلم عميق في نفسها . ومضت فترة الصباح وهي في كآبة كبيرة .

تأخر زوجها وقت الغداء ، فلم تسأله لم تأخر . وجاء المساء ، وكانت اعصابها قد بلغت غاية التوتر ، والطبول تقرع حولها من كل مكان . ستسأله لم تأخر واين كان ، وستخبره انها تعرف اين يمضي اوقاته ، ولكنها زوجة فاضلة ، تغفر اذا كان في الامر مجال للغفران ، وهي تريده ان يصارحها .. ان يحدثها عن كل شيء .

وتأخر مساء ، ثم جاء وهو يحمل رزمة كبيرة . وفتح الرزمة وفي عينيه فرحة الصغار بالاشياء الجديدة ، واراها بذلتين ، الاولى بنية اللون ، والاخرى كحلية يسألها ايهما يختار .

لبس البذلتين امامها ، ودار كأنه عارض ازياء ماهر . رأته طفلاً بريئاً فرحاً ، بثياب جديدة . فنظرت اليه بحنان أمٍ مزهوة بطفلها وقالت : اشتر البذلتين . لست استطيع المفاضلة بينهما ، وسأختار لك ربطتي عنق تلائمهما .

ـ لا ، سأكتفي بواحدة ، ولولا مناسبة هامة لما فكرت

في شراء البذلة .

مناسبة هامة ! ! ما تراها هذه المناسبة الهامة ؟ لم لا يخبرها ما هي ؟ لمَ يريدها دائماً ان تتقصى الاخبار بنفسها ، ويتعبها حين يقول نصف الحديث ؟

وتبسمت له بوله وسألت : وهل لي ان اعرف ما هي هذه المناسبة الهامة يا عزيزي ؟...

ـ انها مفاجأة ، لن اخبرك عنها ، وسأتركها لحينها .

واختار اخيراً البذلة البنية ، ودارت هي على كل المحلات تفتش له عن ربطة عنق ، حددت لها في اول الأمر ميزانية معينة ، ثم زادتها تدريجياً كلما رأت ربطة اجمل من الاولى ، حتى انها خفضت كثيراً مما كانت قد رصدته لهدية جاريهما ، بمناسبة عيد زواجهما ...

« عيد زواجهما .. عيد الزواج ... كيف لم يخطر لي هذا على بال ؟ كيف انسى ؟ انه يشتري البذلة الجديدة احتفالاً بعيد زواجنا . يا لي من غبية ، ويا له من زوج محب ، وفي ، كان ينتظر مني ان اعرف ما هي المفاجأة ... لعله يظن اني نسيت ، ام لعله حسب اني اعد ربطة العنق كهدية له . ما كان يجب ان اخبره عن هديتي له . وهديته لي ؟ ماذا ستكون ؟ لن المح عن حاجاتي . ليختر لي ما يشاؤه بذوقه الخاص .

واطربتها الفكرة ، فاشترت ربطة العنق الفاخرة . رأت

قربها قميصاً من الحرير المهفهف ، وتذكرت قوله (أحب القمصان الحريرية لأنها لا تخدش خديك ، حين تسندين رأسك الجميل اليها) .

واسرعت تشتري الربطة والقميص . وتخبئهما في خزانتها ، في مكان لا تصل يداه اليهما ، لتفاجئه كما سيفاجئها هو .

ومر يومان ، تأخر فيهما عن موعد وصوله الى البيت ، وغفرت له ، فهو يفتش لها عن هدية . وفي اليوم الثالث ، اتصل بها تليفونياً ، ليخبرها عن المفاجأة ، فهناك دعوة تقام في نادي الشركة ، لمناسبة ترفيعه الى منصب رئيس المحاسبين ، وسيكون مشغولاً ، فترة الظهر ، ولكنه سيأتي مبكراً مساء . فعليها ان تستعد ، وتصفف شعرها بصورة تبدو فيها جميلة جداً ، تغطي بجمالها على بقية المدعوات . وختم حديثه بضحكة كلها انتصار وزهو .

وضعت سماعة التليفون ، وهي لا تستطيع التمييز في امر مشاعرها الحقيقية . اهي فرح لترفيعه ، ام خوف من ان يكون قد نسي موعد عيد زواجهما ؟

وتلفتت نحو المرآة ، فرأت وجهها صبوحاً ، نضراً ، وعينيها تبدوان رائعتين . بتسريحة الشعر المرفوع المعقوص الى فوق . كيف يريدها ان تكون احلى من هذا . والكل يشهد لها بالجمال ؟ ولم اصبح يصر على تغيير تسريحة شعرها ، لتبدو اجمل من الاخريات ، وهي لم تحس في يوم ، ان

واحدة من الموجودات تتفوق عليها ، او حتى تنافسها في معرض الجمال ؟

وعند الحلاق طلبت منه ان يغير تسريحة شعرها فنصحها الا تفعل ، ولكنها اصرت وطلبت منه تسريحة تظهرها اصغر سناً . فضحك من قولها وحسبها تمزح . تأملت وجهها والحلاق يلف خصلات الشعر بطريقة يبدو فيها الشعر وكأنه قصير . وخيل لها انها بدت اصغر من الماضي ، ورأت نصيحة زوجها معقولة ، فهو يحبها ويريدها ان تبدو اجمل الموجودات . وفجأة زالت كل الظنون من نفسها ، وارتسمت ابتسامة رضى على وجهها ، لمست عينيها فزادتهما اشراقاً .

كانت راضية تمام الرضى عن نفسها ، حين ارتدت ثوبها السماوي الذي يتلاءم وشعرها الاسود ، وعينيها العميقتين ، اللتين لا يعرف لونهما ...

وانتظرت مجيء زوجها ، لترى وقع مفاجأته بالقميص الحريري ، وربطة العنق ، وحين امسك بالقميص ، وضعه على وجهة ، بميوعة لم تعهدها فيه . وقال بلهجة تمثيلية مبتذلة (سأجعل كل جميلات الحفلة ينعمن بدفء الحرير الليلة) .

نظرت اليه بتعجب . أهذه كلمة الشكر التي تنتظرها ؟ وهذه العبارة الجديدة ؟ كان دفء الحرير مقصوراً على خديها الجميلتين ، على حد تعبيره ، فكيف اصبح ملكاً مشاعاً لكل حسناوات الحفلة . وحدقت فيه تعاتبه بنظراتها

فضحك وقال : انما اردت اثارة غيرتك .

ما له يتكلم بهذه اللهجة الصبيانية ؟ كأنه مراهق يقع في الحب لأول مرة ؟

احسته بعيداً عنها غريباً . هل هو الفرح بالمنصب الجديد يزيل وقاره ؟ ام انها تراه على حقيقته لأول مرة ؟

وفي الحفلة لازمتها فتاة تراها لأول مرة . لم تعرها اهتماماً اول الامر ، ولكنها ملت صحبتها وحاولت التخلص منها . وتظاهرت الفتاة بأنها لم تفهم الامر ، وزاد هذا من حنق الزوجة ، خاصة وان زوجها كان مشغولاً بالترحيب بالمدعوين ، وتلقي التهاني بالمنصب الجديد . ارادت مشاركته في الترحيب ، وفي تلقي التهاني ، ولكنه اعفاها من هذه المهمة بلباقة ، وتركها لصحبة الفتاة الجديدة .

وفي طريق العودة ، عاتبته لانه اهملها ، وكان المفروض ان تشاركه في الاحتفال ، فأجابها بأن السكرتيرة الجديدة غريبة لا تعرف احداً وخشي عليها ان تمل جو الحفلة ، فتركها لصحبتها .

اذن الفتاة التي لازمتها هي السكرتيرة الجديدة ؟ والخوف من ان تستوحش ، اهم لديه من انزعاج زوجته ؟ وهو لم يذكر لها ان لديه سكرتيرة جديدة فلم ؟ وقد اعتاد ان يحدثها عن حوادث يومه الصغيرة والكبيرة ؟

ثم استدرك قائلاً : ظننت اني حدثتك عنها ، ثم ادار

الحديث الى وظيفته الجديدة ، واعجاب الناس به ، واهتمامهم بما ينتظر منه ، وكانت هي تفكر بالسكرتيرة الجديدة . ان شعرها مسدل على كتفيها ، وهي اصغر منها . الهذا ارادني ان ابدو اصغر بشعر مسدل؟ واستمر يتحدث عن فرحه بمنصبه الجديد والفرح يلمع في ثنايا وجهه . وتأملته كأنه طفل نجح من صف الى صف ، واحست بفيض من مشاعر الامومة يطغى عليها ، فغفرت له كل اساءاته اذا كان قد اساء . وكانت على وشك ان تحدثه عن هواجسها وتستغفره عن سوء ظنها ، واذا به يقول :

ـ لقد كنت رائعة في ثوبك الاخضر .

وصدمتها كلمة اخضر . لقد كانت السكرتيرة ترتدي ثوباً اخضر !!

وعادت الطبول تقرع حولها ، ان قلبها يحدثها حديثاً غير محبب ، وهي كلما ارادت ايصاد باب هذه الهواجس ، رأتها تكبر ، حتى تكاد تطغى على كل الافكار الاخرى .

حاولت ان تعرف شيئاً عن هذه السكرتيرة الجديدة ، بطريقة تبدو طبيعية . لا تجسس فيها ، فأخبرها زوجها بكل صراحة ، ووضوح انها تعمل عندهم منذ شهر تقريباً ، وهي اصلاً من قرية في الشمال ، وتسكن في بيت خالتها . لا اصدقاء لها هنا في المدينة ، وختم حديثه ، بأنه يريد منها ان تزورها ، وتدعوها لعندهم ، لانها مستوحشة ، وتشكو الوحدة .

فسألته « ومتى عرفت كل اخبارها هذه ؟ »

فانتفض حين سمع جوابها ، وكأنه احس بأنه تكلم اكثر مما يجب . ثم قال بصوت مرتبك « هذا مجرد اقتراح ، اذا كنت لا تجدين وقتاً لها ، فلا تهتمي بها كثيراً » .

ارادت ان تقول « يظهر ان غيري يجد وقتاً لها » ولكنها فضلت عدم فتح باب نقاش جديد .

وفي اليوم التالي اتصلت بالسكرتيرة تليفونياً ، لتسأل عنها ، فقيل لها انها مريضة ، واعطيت رقم تلفون بيت خالتها ، فحاولت الاتصال بها الى هناك ، ولكن الخط كان مشغولاً ، وما ان وضعت سماعة التلفون ، حتى خطر لها ان يكون زوجها شاغل خط السكرتيرة ، فأسرعت تدير قرص الارقام ، واذا تلفون زوجها مشغول ايضاً .

وهنا احست بالأرض تميد تحت قدميها ، وبقيت حوالي النصف ساعة وهي تدير ارقام الخطين ، وكانا في كل مرة مشغولين ، واحتارت كيف تجابه زوجها بالحقيقة ، اتقولها مباشرة ؟ وليحدث ما يحدث ؟ ام تحادثه بدبلوماسية علّه يرعوى ، او قد يكون من الافضل ان تتظاهر بالجهل ، لعلها سحابة صيف ، يعود بعدها عن غيّه ؟

وأدارت ارقام التلفون ، وفي ارتباكها لم تدر اي الخطين ابتدأت به ... وسمعت صوته يسأل : « نعم ؟ » فارتبكت ولم تدر بماذا تجيب . فوضعت السماعة ويدها ترتجف . ثم

رفعتها ثانية تدير ارقام تلفون السكرتيرة ، واذا الخط لا يزال مشغولاً فتنفست الصعداء .

وجلست تستعرض شكوكها ، وهواجسها ، فلم تر فيها دليلاً واحداً ، قوياً ، ضده ، ولكن حاستها السادسة ، هذه التي تصدق دائماً معها ، كيف تُسكت قرع طبولها ؟

وجاء يوم عيد زواجهما ، ومر وكأنه لم يأت ، ولم يمر . وعز عليها ان تتذكر هي وينسى هو ، فتظاهرت بالنسيان . أهي كثرة الاشغال تنسيه هذه الامور الصغيرة ، ام ان اهتمامه بها قد قل ، فنسي هذه الامور الكبيرة ؟

وجاءها يوماً ، وفي عينيه خبر يستعجل قوله ، وانتظر منها ان تسأله ، فتجاهلت خبر عينيه ، وانتظرت ان يبدأ هو الحديث هذه المرة . فقال لها وهما على العشاء : (لقد تلقت الشركة دعوة الى مؤتمر . وانتظر منها تعليقاً فقالت : ثم ؟ فقال : ويشترط في المدعو ان يذهب وحده ، دون زوجته ، لأن البرنامج المعد ، مقتصر على الرجال ، وفيه محاضرات لا تحبها النساء عادة .

وانتظر منها ان تقول شيئاً فقالت : ثم ؟

فقال : وقد امضي في ذاك البلد بضعة ايام للاستجمام ، بعد انتهاء المؤتمر ، فما قولك ؟ فأجابت : (لقد تعبت من الكبرياء) ولكنه لم يفهم قولها .

وحين كانت تعد له حقيبة ثيابه ، طلب منها ان تضع افضل ما عنده ، ثم جاءها باسورة مجدولة بليرات ذهبية ، وقال انه اختار هذه الاسورة ، خصيصاً ، ليذكرها صوت الرنين ، بأنه يعد الساعات لعودته اليها .

وحين احتضنها مودعاً قبل سفره ، سمعت في ضربات قلبه قرع الطبول ، ولكنها كذبتها .

وصلتها منه اول برقية يقول فيها :

(افتقدتك كثيراً) ـ وثانية (انتظر عودتي اليك ، بفارغ الصبر) ـ وثالثه (هم وارق وضياع) .

في اليوم الخامس ، وصلها خبر مقتله في حادث اصطدام لسيارته قتلت معه السكرتيرة ، وهما في طريقهما الى فندق جبلي ، كانا قد حجزا فيه غرفة نوم مشتركة تحت اسمه واسم السيدة زوجته .

الحُبّ الأكبر

«كان يفصل بين بيتينا شارع طويل شبيه بهذا الشارع ولكنه كان دائم الازدحام بالناس، وكنت استطيع تمييزه من بين العشرات وعلى بعد مئات الامتار . كان يقول لي انه هو رآني قبلاً، واؤكد له اني كنت السابقة ثم اتفقنا ان نوقت لحظة الرؤية لنرى حين اللقاء من منا ميّز الثاني اولاً ... » .

« ليلى سأكمل هذا القسم من المادة ونعود الى الحديث. انا اوافقك ان حبك كبير .. كبير » .

رأيت في عيني ليلى نظرة عتاب . لقد ابعدت الوله منهما . عدت بهما الى واقع الامتحان الذي ينتظرنا غداً .

وسرعان ما تحولت النظرة في عينيها الى استسلام وتمددت على فراشها وعادت الى القراءة .

قطعت علي الاصغاء وعلى ليلى الحديث زميلتنا لليان . جاءت باسطوانة وطلبت ان نسمعها اياها على الحاكي. بقية الزميلات اخبرنها ان كلماتها تصف عواطف الشرقيين اصدق

وصف .

ارسلت لي عينا ليلى نظرة انتصار فطويت كتابي وجلست استمع الى اغنية السيد درويش (انا هويت) وليلى تترجم لليان كلمات الاغنية .

سألتني مساعدتها في ترجمة المقطع :

احبه حتى في الخصام

احبه حتى في المنام

رأيت عيني ليان الخضراوين تتحولان الى الزرقة الغامقة وتهمس (لم نتخاصم الا حين كان يريد أحدنا ان يبرهن ان حبه هو الأكبر ويبحث عن شتى البراهين ثم نصمت ، وكان صمتنا ابلغ تعبير) .

تركت ليلى تترجم ولليان تتذكر وعدت الى كتابي احاول اكمال الصفحات المتبقية من الفصل .

رفعت رأسي احاول تذكر النقاط الرئيسية مما قرأت ، وقرب النافذة كانت صديقتاي تشيران الى الشارع وليلى تقول : « الغد يوم عطلة ولدينا متسع للدرس . حسناً فعلوا ان عينوا موعد امتحان هذه المادة الصعبة الى ما بعد يوم العطلة ... » .

ارخت لليان ذراعيها متمتمة (كان ذاك الشارع الطويل يؤدي في احد منعطفاته الى قرية صغيرة ، كنا نذهب

اليها يوم العطل سيراً على الاقدام . كنت اتعب واخاف من البوح لئلا يعرض علي ان استبدل حذائي ذا الكعب العالي بآخر واطيء فأبدو قصيرة قربه . كان طويلاً . ارفع رأسي عالياً لأراه . كم كنت أفخر بالسير بجواره . استطيع تحدي الدنيا وهو معي) .

قاطعتها ليلى «كم سرنا في شارعنا وكم سرقنا اللوز الاخضر . كنا نحن الاثنين نحبه فجاً وننتظر حلول المساء ، وكطفلين صغيرين نتعلق بالاغصان ، قافزين اليها ، ومن يحصل على لوزة يطعم الآخر نصفها) .

وتكمل ليان : (كان في النصف الثاني دائماً حلاوة اكثر) .

اخذت كتابي الى قاعة المطالعة، وكانت كبيرة واسعة تملأها الطاولات الداكنات اللون والكراسي الخشبية الصلبة . شغلت بالقراءة ، وفجأة احسست بوحشة شديدة وخيل لي اني على وشك البكاء، فسارعت الى غرفتي. سمعت لليان تقول : « احس كأن الناس يدرون اني وحيدة ويعطفون علي، ويعن لي احياناً ان اذكر لهم كيف كنت قوية معتزة بجواره . انا اخاف الوحدة .. اخافها ... » .

اقترحت عليهما شرب قدح شاي فقالت ليلى انها تفضل القهوة . لقد علمها هو معنى تذوق القهوة . انه يحبها قليلة السكر ، وهي لا تدري كيف كانت تعيش قبل ان يعودها

على قهوة الساعة العاشرة صباحاً . كانت اول دعوة تلقتها منه يوم لاقاها في ممر الجامعة ودعاها الى فنجان قهوة وعجبت لدعوته ... ثم صارت تنتظرها وباهت بها على زميلاتها .. » .

سألت : ثم ؟؟

اجابتني لليان : «كانت اول رسالة كتبتها له يوم سفري وقررت رميها في صندوق البريد وانا في طريقي الى الطائرة ولكني خجلت ان اطلب من ابوي ايقاف السيارة ففكرت في وضعها في بريد المطار ... وهناك فوجئت به . جاء يودعني مع جماعة من اصدقائه ، عرفت لحظتها كم سيكون الفراق أليماً وبدأ حبي له يكبر .

جلست مع اسرتي في قاعة الانتظار وكان هو يجاورنا في حلقة مع اصدقائه . كنت اريد تسليمه الرسالة ولكن اقربائي واصلوا حديثهم وتوصياتهم لي ، ولم اجد ثغرة اتركهم فيها . لم افهم حرفاً مما قالوا . كنت اخشى ان اسمع من ينادينا الى ركوب الطائرة . ولكني سمعت الاغنية ... الاسطوانة التي وضعها . كانت اغنية جديدة شائعة نستسخفها كلانا . ولا ادري من كان يحدثني وعمّ كان الحديث . الذي ادريه اني نهضت من مكـــاني بكل شجاعـــة وانتقلت الى حلقته هو ورفاقه، وحين بدأت مصافحتهم سمعت النداء الى ركوب الطائرة . فأسرعت اصافح الايدي الممتدة لتوديعي ، وطوال الطريق في الطائرة كنت خائفة ان تكون الكف التي

وضعت فيها الرسالة غير كفه ، وقررت ان اجعل من اول اغنية اسمعها بعد وصولي نذيراً او بشيرا . لم افهم معنى الاغنية العربية فطلبت من المضيفة ان تكتب لي اسم الاسطوانة واشتريتها ولا ازال احتفظ بها . وبصعوبة فهمنا مما رددته لليان من الفاظ عربية كلمات اغنية (في البحر لم فتكم في البر فتوني) .

تمنيت لو تكون ليان غير فاهمة لكلمات الاغنية ولكنها قالت « هناك اغنية هندية سمعتها عند (لالا) تشابه معانيها معاني اغنيتكم العربية ... وعرفت ان حبي انا لا حبه هو سيكون الأكبر. انه لما يسعد ان يكتشف المحب ان عاطفته عميقة لم يعرفها غيره من المحبين ... سأنادي لالا لتأتي بالاسطوانة تسمعها وتترجمها لنا » .

رأتني ليلى انظر الى ساعتي واقيس كثافة الصفحات الكثيرة المتبقية من مادة الدرس فارتسمت على عينيها بسمة خفيفة شامتة .

انسحبت بكتابي الى غرفة مديرة القسم الداخلي وكانت سيدة متقدمة في السن . اعتادت مني هذه الزيارات . جو غرفتها يرجعني الى البيت ودفئه .

جلست في ركن عطوف واستغرقت في القراءة . لا ادري كم مر من الوقت قبل ان يضاء النور وارى المديرة تتقدم مني تطمئن علي . تطلعت اليها ارى في عينيها كل

الحنان والود الذي احتاج . كانت سلسلة تتدلى من عنقها معلق بها صورة رجل شاب . سارعت تدخل الصورة تحت ثيابها بحركة مرتبكة . استأذنت بالخروج وانا اتساءل في نفسي « اهذا هو حب المديرة الأكبر » ؟؟

في طريقي الى قاعة الطعام رأيت زميلة تمسك بسماعة الهاتف تحدثها بوله . الخوف يقفز من العينين والشوق يهرب من يديها .

وعلى مائدة العشاء قالت جارتي انها تحب هذا الصنف من الطعام كثيراً (تذكرت حب ليلى للقهوة) . فاجبت مسرعة : وأنا احبه ايضاً. واجبرت نفسي على اتمام صحن اكلة امجها كي لا اسمع حديث حب اكبر جديد .

* * *

كنا كلنا مرهقات فترة الامتحان النهائي ، وفي ليلة الامتحان الشامل بالذات غالبت النوم بالجلوس على كرسي منتصب وتكويم الكتب حولي اراجعها للمرة الاخيرة .

افقت على صوت ليلى وهي تهزني . كانت الغرفة مظلمة ولا ادري في اية ساعة متأخرة من الليل كنا . وبين رغبتي في معاودة النوم والحاحها علي بالكلام فهمت انها تريد ان تستشيرني في امر هام . طلبت منها تأجيله الى الصباح فتوسلت الي ان اصغي اليها . ايمكن ان يكون حب الاخريات والآخرين مثل حبها هي ؟؟ الا تنفرد هي

بما تحسّ من مشاعر ؟ الا تعني الاشياء الصغيرة لها هي وحدها معاني كبيرة ؟ ايمكن ان يكون حبها .. حبها الكبير ملكاً مشاعاً لكل المحبين ؟ اليس حبها هي هو الحب الأكبر ؟!.

قمت الى فراشي . ارحت رأسي على الوسادة وسحبت الغطاء فوقي وادرت وجهي صوب الحائط . فضلت الا احدث ليلى عن يوم انتهى فيه الصراع مع نفسي ومع الآخرين يوم ماتت الاشياء عندي حين اكتشفت اكذوبة الحب الأكبر .

استيقظنا صباحاً على ضجة كبيرة وهرعت الطالبات ينشرن خبر محاولة لالا زميلتنا الهندية الانتحار ونقلها الى المستشفى .

وبين استفسار الهلعات وقلقهن وجدتني اتساءل « هل حاولت لالا الانتحار نتيجة ارهاقها استعداداً للامتحان ام تراني اخطأت في اكتشافي لاكذوبة الحب الاكبر » ..؟؟

العضلة بل العضلتان

كان خيط جوربها معوجاً فأصلحته . وتطلعت الى المرآة تتأكد من استقامة الخيط . ساقاها جميلتان، فتأملتهما معجبة ثم خطت بضع خطوات . فجأة برزت عضلتان في ساقيها . حاولت ان تغير طريقة السير فلم تنجح . حركت موقفها امام المرآة راجية ان يكون الانعكاس خاطئاً . ولكنه لم يكن ، ضربت على ساقها بكفها تريد ادخال العضلة فعادت تتحداها بالخروج . واحست برعب . ممن تطلب النجدة ؟ من يستطيع ان يزيل بروز العضلتين البشعتين من ساقيها الجميلتين ؟

والحفلة ؟ حفلة عرض الازياء التي استعدت لها منذ حوالي الشهر . تريد ان تجعل خطيبها يشتري لها افخر الفساتين حين يرى ان جمال اجسام عارضات الازياء الباريسيات ليس اكثر من جمال جسدها ووجوههن لا تفضل وجهها . ولكن العضلة بل العضلتين ! لو اغفلت العين واحدة فلن تغفل عن الاخرى .

خلعت احدى فردتي الحذاء واذا بالعضلة تختفي من الساق الحافية. صفقت للنتيجة ولكن... هل تمشي حافية؟! عادت فلبست الحذاء وعادت العضلة الى البروز. هل يمكن ان لا تسير؟ هل تطير فوق الحضور لتصل الى مكان الصدارة الذي امرت بحجزه؟ لا بد من السير ولكن العضلة بل العضلتين!

تطلعت الى خزانة الاحذية وكانت مكدسة بعشرات منها. وقفت فترة امام المرآة تجربها واحدة بعد الاخرى الى ان اكتشفت ان العضلتين تختفيان مع زوج منها ذي كعب اقصر.

ولكن لون الحذاء هذا لا يتفق وثيابها... وارتبكت لا تدري ما تفعل. هل تغير ثوبها؟ وقد اعدته لهذه المناسبة؟ وحقيبة اليد هل تبدلها هي الاخرى اكراماً للحذاء البديل؟ وقفت حائرة لهذه المصيبة التي لم تكن تنتظرها.

فهي امام احد امرين: اما ان تغير فستانها او تغير الحذاء والحقيبة. وعادت الى المرآة تسألها الخبر اليقين لترى ايهما يمكن التفريط به بسهولة اكثر او صعوبة اقل. لم تستطع المفاضلة فالطرفان غاليان عليها عزيزان. تباً لهذه العضلة بل العضلتين اللتين قلبتا كل برنامجها.

شعرها كان مصففاً كما طلبت من الحلاق ان يفعل. صحيح انها تعبت في تفسير نوعية التسريحة التي تريدها واضطرت

الحلاق الى اعادة التصفيف مرتين قبل ان ترضى عن عمله ، ولكنها راضية الآن تمام الرضا . ووجهها الذي بقيت تتمرن على تحسينه طيلة اسبوع . تذهب كل يوم الى مكان جديد من محلات التجميل تستعمل نوعاً ولوناً جديداً من معدات الزينة وتقارن بين النوعين والثلاثة والاربعة الى ان استقرت على محل واحد ارتاحت للمساحيق التي استعملها . وابرز جمالها كما لم تبرزه بقية المحلات .

كل شيء كان مرتباً ومرضياً لولا العضلة بل العضلتان . هل يفيدها ان تذهب الى مدلّك ؟ ولكن الوقت متأخر وسيحضر خطيبها بين لحظة واخرى وستبدأ حفلة عرض الازياء بعد حوالي الساعة . كيف تتخلص من هذه المصيبة ؟ هل يدري احد كم هي تعسة ؟! سيحسدها الناس حين يرونها مع خطيبها الثري الوجيه ... جميلة انيقة ؛ ولكن اتراهم يدرون ما تعانيه من جراء بروز العضلات ؟!

ليت الناس يرفعون عيونهم ليشغلوا بتأمل وجهها وشعرها وعنقها وكتفيها ... يتأملون المجوهرات المكدسة حول تلك المنطقة . ماذا في ساقيها يجلب الانتباه ؟ هناك العضلة بل العضلتان . لمَ تعاكسها الظروف ؟ لمَ تأتيها المصائب من حيث لا تدري ؟ لمَ يعاندها القدر هكذا ؟ اعلنت الساعة مرور نصف ساعة . لم يبق غير ثلاثين دقيقة ويأتي خطيبها ، ويجب ان لا يراها في هذا المزاج العكر . فقد تنفعل وتخبره

عن حديث العضلتين فتنبهه الى الامر الذي تريد اخفاءه عنه . ستجلس فلا ينتبه الى ساقيها حين دخوله .

مر ربع ساعة ولم يأت الخطيب . تحب فيه كل شيء عدا عدم ضبطه للمواعيد .

صوت التلفزيون يزعج اذنيها الرشيقتين . ذهبت اليه تريد اسكاته وعلى شاشاته بدت سيدة متقدمة في السن ضعيفة . يبدو على وجهها التعب والارهاق .

« لمَ يطالعوننا بهذه الوجوه الكئيبة ؟ اما كفانا ما نحسه من مصائب ؟ » فستان السيدة طويل يغطي قسماً من ساقيها ، كيف يعرضون امامنا هذا النوع من النساء والدنيا ملأى بالجميلات الانيقات ؟ » .

« ولكنها سعيدة فساقاها لا تبدوان والثوب يغطيهما حتى لو كان فيهما ألف عضلة » .

يظهر ان هناك اسئلة كانت توجه لسيدة الشاشة لأنها اجابت :

ـ نعم انا سعيدة بما فعلته فان اخي حصل على جائزة الدولة لاختراعه الجديد .

ـ اما كان يمكنك الاحتفاظ بخطيبك ومساعدة اسرتك معاً ؟

ـ لم ارد ان استغل خطيبي . كان عليه ان ينتظرني سنوات

او يساعد اسرتي ولم ارض له واحداً من هذا . وكان كل اخوتي صغاراً ففضلت فسخ الخطبة .

ـ لا شك ان اخاك يعتز بما ضحيت به لاجله .

ـ انا لا اتحدث عن هذا أمامه اذ لا احسه يريد تذكره .

وتذكرت هي عضلتيها . مرت بكفها تتحسسهما . ساقاها ناعمتان لا اثر للبروز فيهما « ليت الناس يتلمسون بدل ان ينظروا » .

وظهرت سيدة ثانية على الشاشة وتبعها عدد من الرجال والفتيات وظهر من الحديث ان كل هؤلاء اولادها .

« الحشد الكبير كله اولاد هذه السيدة ؟ »

« لا عجب ان كان جسمها مترهلاً ووجهها يحمل كل الهموم »

سألتها المذيعة :

ـ ما شعورك حين يحيط بك اولادك ؟

ـ احس بفخر وزهو . لقد كان صغيرهم في الشهر الثاني من عمره حين توفي والدهم . وعملت كل جهدي لاعوض لهم من وجود الاب . كنت اقسو احياناً لامثل دور الرجل في البيت . ومع هذا احبني اولادي ولا يزالون يحبونني . انا فخورة بحبهم .

« تفتخر اذ يكون لديها قطيع من الاولاد ! ما الفرق

بينها وبين الحيوانات اذن؟ لقد امضت كل حياتها تحمل وتلد ، ولا شك انها ارضعتهم ايضاً . هذه الطبقة من الناس ترضع اولادها ! » .

« ليتهم يلغون حفلة عرض الازياء ولكن لا ... انها تريد مشاهدة الازياء. ليتهم يكتفون باذاعتها على الشاشة فيخلصون المشاهدين من مناظر هاته النسوة المحملات بالهموم » .

اقفلت التلفزيون حتى لا تخدش اذنيها المرهفتي الحس بهذه الاحاديث .

اغمضت عينيها واسترخت في كرسيها ثم انتصبت (كيف غاب عن بالها ان الاسترخاء يشوش تسريحة شعرها) عادت تجلس وقد رفعت رأسها خوف ان يمس ظهر الكرسي .

من النافذة المفتوحة امامها جاءها صوت جماهير تهتف .

اقتربت الاصوات وعلا الهتاف . جمهور كبير من الناس يحملون لوحات كتبت عليها شعارات . بين الجمهور عدد من الفتيات يسرن في المقدمة . الشرطة تعترض المتظاهرين وتحاول تفريقهم . الفتيات يصمدن للمقاومة ويرفعن اذرعهن بعضلات قوية هاتفات بالشعارات الوطنية ..

* * *

كانت عضلات وجهها كلها تصميم وهي تحدث صديقتها عن خططها للعمل الوطني . وتصغي الصديقة وتصغي ثم تسأل :

ـ هل تؤمنين بما تقولين

فتجيب : نعم لاني اؤمن به .

ـ كيف تغيرت ؟؟

ـ ارادني ان اكون هكذا فكنت .. انت تدرين اني احبه .

رسالة الى جدّتي

« جدتي العزيزة :

لقد رفضته يا جدتي . انا ادرى انك ستغضبين علي ولن ترضي عن تصرفاتي. انا كذلك غير راضية عنها . ولكني لا استطيع تغييرها . ولو حدثتك عن اسباب رفضي للخاطب الجديد لازددت ثورة علي . فلأترك الحديث عن الاسباب ما دمنا لن نتفق عليها . وقبل ان اكتب له اطلب المغفرة منك .. » .

قطع عليها افكارها صوت اقدام الجار تصعد الدرج الخشبي وصوتها يدخل الغرفة المجاورة ، واحست فجأة بوحدتها : انها لا تريد ان تكون مثل ساكني هذا البلد ، فهي لها جدتها ولها اقرباؤها الكثيرون واصدقاؤها يمنحونها وداً ومحبة واهتماماً تغنيها عن الاهتمام بشخص واحد معين .

وارتفع ضجيج الموسيقى ، لقد بدأ جارها برنامجه اليومي

وستبقى الموسيقى الصاخبة تضج الى فترة ليست قصيرة .

كانت قد طلبت من صاحبة البيت ان تسأل الجار تخفيض موسيقاه فوعدتها ان تفعل ، ولكن الجـــار استمر يضع الموسيقى الصاخبة . وقالت لها صاحبة البيت لم يهن علي ان اطلب منه هذا ، انه وحيد والموسيقى العالية تخفف وحشته . لعلك تتعودين عليها .

واعتادت ان تسمع الموسيقى الصاخبة واعتادت ان تنزعج منها، واعتادت ان تذكّرها الموسيقى بغربتها وبوحشة الجار .

عادت الى الرسالة . واحتارت .. هل تكملها ؟.. هل تبدأ رسالة جديدة ؟ هل تمزق هذه الرسالة ؟..

اخذت مظلتها وخرجت تسير في شوارع المدينة الكبيرة . كان المطر يتساقط رذاذاً منذ الصباح الباكر ، ولعله ابتدأ منذ الليلة الماضية . ليت المطر يهطل بقوة فتفرغ السماء غيمها . ان هذا الرذاذ الخفيف المتواصل يوتر اعصابها. السير والهواء البارد سيخففان عنها .

وفي اول ركن من الشارع رأت فتاة متكئة على الحائط وقد وضعت حقيبتين بجوارها . فكرت ان تعرض عليها مساعدتها ، قد تكون تائهة في شوارع هذه المدينة الكبيرة ، وضحكت من نفسها عند هذا التفكير . فهي لا تعرف تماماً تفرعات وتشعبات الشوارع حتى في المنطقة التي تسكنها . وعادت

تضحك بصوت عال ، وارعبها ضحكها وبدأ كأنه غير صادر عنها ، وتمنت لو تسمع احد المارين يغني كما يفعل اهل بلدها ، او لو تسمع ضجة الناس من بيوتهم حين تمر بها . ولكن لا شيء غير الصمت الثقيل كان ينبعث من النوافذ .

رفعت رأسها تتطلع الى البيوت المضاءة واحست ان كل ساكني تلك البيوت تعساء، كل غرفة بساكنها الوحيد تتعذب . وانتظرت، وكانت على يقين ان النوافذ، كل النوافذ، ستفتح ويلقي ساكنوها بأنفسهم .. الآن تفهم لماذا تكثر حوادث الانتحار بين ساكني هذا البلد . واخفضت رأسها لا تريد ان ترى الناس في لحظة يأسهم .

ومن هناك جذبها ضوء قوي سارت اليه ووجدت نفسها تتطلع الى غرفة خلال نافذة لم يحكم اسدال الستارة عليها . هنا رجل يجلس على الكرسي بجوار المدفأة يمسك جريدة . قدماه مرتاحتان على وسادة جلدية . امامه امرأة لا شك انها زوجته تحيك قطعة صوفية وتسترق النظرات الى الرجل تحادثه ؛ بينهما ادوات الشاي؛ لم تسمع ما يقولان ، ولكن الرضى الذي يميز جو الغرفة ويرتسم حتى على الصورة اوحى لها بما يتحدثان به ... وهناك في حجرة الجلوس في بيتها ، المقاعد الوثيرة والوسائد الزاهية المستلقية عليها باطمئنان . القطة تتثاءب وتتمطى، تنتقل لتغفو في اركان الغرفة تريد

الاستمتاع بحنان كل زاوية .. الجمر المتوهج في المنقلة الراضي بمصيره حتى حين يخبو وهجه . جدتها تطرز قطعة جديدة من جهاز العرس الذي تعده لحفيدها .

ستترك غداً هذه المدينة . ستعود الى جدتها وبيتها ووطنها ، تطيل النظر الى عيني جدتها ، ترى الاطمئنان فيهما . كانت الجدة تفرح ان تنتهي من تطريز قطعة جديدة وتلوم حفيدتها كلما رفضت خاطباً جديداً لأن الرفض لا يشجعها على الانتاج السريع في التطريز ، وتعيرها بأنها من عصر لا يهتم الفرد فيه الا بنفسه ولا يريد ان يتحمل مسؤوليات وهي حين كانت في عمر حفيدتها كان لها بيت واولاد مسؤولة عنهم .

ستكتب الى جدتها تشرح لها ما حملته طوال هذه المدة من عبء ومسؤوليات ، ستكشف لها لأول مرة عن نفسها .. ستخبرها انها حين كانت تعود من الاجتماعات التي تدرس فيها الاوضاع الاجتماعية وتحاول هي ورفاقها ايجاد حلول للاوضاع السياسية المتأزمة في البلاد وهم يحسون مسؤولية العالم العربي كله على عاتقهم ؛ تزعم لجدتها انها كانت في حفلة راقصة ؛ تفسر لها بهذا السبب غيابها اما جدتها فكانت تبدأ كالعادة باللوم والتقريع والتنديد بهذا الجيل الذي لا يفهم من الحياة غير الرقص ، ستقول لجدتها انها حين تحملت مسؤولية بيت واولاد اعتزت بهذا ولا تزال تزهو به ..

ولكن هي وابناء جيلها يتحملون مسؤولية شعوب دون ان يكونوا قادرين على البوح ، فكيف على التبجح به ؟؟ .

تتذكر اول وصولها الى هذا البلد حين اخذتها زميلة الى حفلة راقصة وكانت مشتاقة الى التعرف على هذه الأماكن التي طالما كانت فيها وحسبت عليها على غير حقيقة .

وهناك عجبت للناس .. اناس من مختلف الاعمار والمشارب والاذواق يرقصون ساعات ولا يملون . كأن لا شيء في الحياة يستحق الاهتمام غير موازنة حركات الجسم مع الموسيقى . كم غبطتهم ليلتئذ . كم تمنت لو تستطيع ان تحصر افكارها في انسجام حركات عضلاتها ، كم تمنت لو تستطيع الوقوف كما تفعل الفتيات المكدسات حول الحائط في انتظار ان يتقدم اليها طالب رقصة . ان تكون لحظة الانتصار الكبرى عندها حين يختارها واحد من الموجودين ، وليكن ما يكون ، ما دام رجل يحيطها بذراعيه . ان لا تحس كبرياءها قد اهينت وهي تسمح لغريب بامساكها .. ان لا تحتقر نفسها وهي تضيع الوقت باللهو وفي الحياة عشرات من المشاكل تحتاج الى حل .. ان تهز كتفين غير محملتين بالهموم وتميل برأسها دون ان تحسه مثقلاً بألف مشروع .

لقد ترك الناس الهموم العامة هنا لمن يستطيع حلها واعطوا المشاريع لمحترفيها وكفاهم هموم النفس ينشغلون بها .

لم تسمع ضربات الرذاذ على مظلتها . ومدت كفها ؛ كان

المطر قد توقف لا تدري منذ متى ، ولم تشعر بارتياح . كانت تظن ان ذاك الرذاذ المتواصل يرهق اعصابها ، وها قد افرغت السماء غيمها وما يزال الشعور بالانقباض يكبلها ، متى تفرغ الأرض غيومها ؟ متى ؟؟.

وفي ركن الشارع كانت الفتاة الواقفة لا تزال واقفة. وارتاحت هي لفكرة ان تحدث احداً، فهي لم تتكلم منذ بدأت عطلة نهاية الاسبوع . تقدمت من الفتاة تسألها مـــا بهـــا . اجابت الفتاة بأنها وقفت لتجعـــل المارين يهتمون بأمرها ويتحدثون اليها فهي ستصل الى غرفتها بعد قليل . انها تسكن هنا في هذا البيت الذي امامها ولو دخلته لما وجدت عذراً تستثير به اهتمام الآخرين . وختمت حديثها « وعلى كل فأنت الشخص الوحيد الذي سألني عن امري . لا اظنك من اهل هذا البلد فمن اين انت ؟ »

– انا من بلد هربت من فضول الناس فيه واهتمامهم .

– كيف تهربين من اهتمام الناس ؟ لقد كنت قبل قليل افكر في ان اتظاهر بالاغماء لكي يهتم بي احد . اين بلادك ؟ حدثيني عنها . هل استطيع المجيء اليها ؟.

– ليتك تأتين وتجلبين معك مئات الفتيات اذن لارتاح جيلنا من المشاكل السياسية وعاش حياته الطبيعية متوتراً بها .

ووجدت في هذه العبارة مفتاحاً للحديث الذي طالما اسكتته، فانطلقت تفرغ ما في نفسها « هل فكرت يوماً في

القلق العام؟ هل قلقت لاجل الوضع السياسي في بلادك؟ ان قلقك خاص ونحن لا حق لنا فيه. لا حق لنا في القلق الشخصي. لقد خنقه فضول الناس ومقاييس المجتمع فأفرغناه في القلق العام ونسينا انفسنا، نسينا ما معنى اللهفة والحنين والشوق. هذه امور تعداها جيلنا الى الخوض بالامور السياسية. لقد تحمل جيلنا غير اعبائه حين لم يسمح له بتحمل اعبائه العاطفية الخاصة».

وتصغي الفتاة وهي لا تدري ما معنى المحاضرة المتحمسة ثم تسأل:

– ألم تجدي رجلاً يهتم بك؟.. يحبك؟

– انا هاربة منه.

– لمَ تهربين ممن يحبونك؟

– هذا هو السؤال الذي لا توافقني جدتي على جوابه.

وتوقفت عند هذا الحد. لقد تمادت في الحديث مع غريبة عن امورها الخاصة. ولعل كونها غريبة سمح لها بهذا الاسترسال.

وتركت الفتاة الواقفة واقفة بعد ان اعطتها عنوان بيتها في الوطن، وقالت لها «لا تنسي ان تزوريني هناك ومعك اكبر عدد ممكن من الفتيات، على ان يكن جميلات وغبيات».

وفي غرفتها كانت السكينة تغطي كل شيء. من يستطيع ان يصدق ان في هذا البيت تسعة نزلاء وعائلة في الطابق

الاعـــلى؟ لم لا يصدر احدهم صوتاً لتحس ان في البيت احياء ؟.

بعض الرسالة لا يزال بعد على المائدة . دفعتها بيدها. سحبت ورقة جديدة : ستخط رسالة جديدة .. سنعود .. تعود لترى الاطمئنان في عيني جدتها . « وستنظرين يا جدتي في عيني تنتظرين خيراً . ليس في عيني يا جدتي غير القلق . القلق الذي لا تعرفين والسفر يزيد منه . لقد رفضته يا جدتي لانه .. لانه لا يأرق .. انه لا يعرف معنى التوتر والهرب » .

فهرست

صمم الغلاف اميل منعم